الفصل الثاني

زوجات النبي ﷺ وسراريه

لماذا عدد النبي ﷺ من زوجاته

سيدنا محمد ﷺ هو النبي العظيم الذي اصطفاه ربه وحَمَّلَهُ الرسالة الخاتمة، وكلَّفه بإبلاغها إلى الناس، وساق إليه الأمن والطمأنينة بأنه سبحانه حاميه من الناس، وعاصِمُه مِنْ أذاهم، فقال له: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[1]. وقد ساق الله ذلك للرسول ﷺ وبيَّنه له، لأن المشركين عندما أنكروا الرسالة الإلٰهية التي حملها سيدنا محمد ﷺ، كان المشركون يبحثون في حياته، ويقلِّبون صفحات أيامه من قبل أن يُولَد إلى اللحظة التي يعيشون فيها، وكانوا يدقِّقون في كل الأحداث علَّهم يجدون زَلَّة أو يعثرون على هفوة فيضخمون ذلك ويكبرونه حتى يشيعوها بين الناس ليقلِّلُوا من شأن النبي ﷺ، فلم يعثروا في حياته على هفوة، ولو بسيطة، وإنما وجدوا الكمال المطلق، والنزاهة، والشرف الكامل، والعفَّة، لأنه ﷺ تربي على مكارم الأخلاق، وتحلَّي بالمروءة والشجاعة. ولما عجز المشركون وأعياهم البحث عن العثور في حياته ﷺ عن أي ذلّة بدأوا يردِّدون: إنه مجنون، فردَّ عليهم القرآن بقوله: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾[2]. فاتَّجهوا إلى فكر آخر، وقالوا: ساحر، وكان هذا من باب الإفلاس، لأنه كما يقول القائل:

وإذا أتتك مَذَمَّتِي من ناقصٍ فهي الشهادةُ لي بأني كاملُ

وإذا كان العرب قد أفلسوا لأنهم لمَّا سُئِلوا: هل تكذبون محمداً؟ فأجمعوا أمرهم على كلمة واحدة: «والله ما جَرَّبْنا عليه كذباً قط». لكنه من خلال هؤلاء الناس تشكلت مدارس لها أفكارها ولها مناهجها، يتزعم كل مدرسة ﴿ حَلَّافٍ

---

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧.

(٢) سورة القلم، الآية ٢.

مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾[1]. وهذه المدارس كل جيل يُسلم فكره للجيل الذي يأتي بعده. وكل جيل يزيد على فكر الجيل الذي سبقه بما يتلاءم والمناخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والتجاري في عصره، إلى أن وصل الفكر إلى القرن العشرين، وفيه ظهر «الإنترنت»، وبدأ المجتمع الدولي في صراع دامٍ وحروب متواصلة، ومع ذلك السباق الرهيب في غزو الفضاء، ونشر الأقمار الصناعية التي تبث فكر كل دولة، ولا شك أن كل دولة لها معتنقها الديني وعقيدتها التي تدافع عنها. وإذا كانت المعارك في الميادين بالمدافع والقنابل والطائرات والدبابات فإن الحروب الفكرية بالكلمات والمقالات. لهذا ظهر في هذا القرن وما قبله من يتهم النبي محمداً ﷺ بأنه «عدو المرأة»، ويدلِّلون على ذلك بأنه أباح لأتباعه أن يتزوجوا كل واحد منهم بأربع نساء. وكان هو رائدهم في ذلك، لأنه أكثرهم شهوة، فتزوج بأكثر من عشر نساء. وهؤلاء الناس جانبهم الصواب وأخطأوا، لأنهم لم يقرأوا تاريخ الإسلام، فقد أعماهم الحقد على الإسلام، لأنهم تربوا على فكر أسلافهم و﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾[2].

وهم لو أنصفوا الحقيقة وقراءة التاريخ لَعَرفوا أن النبي محمداً ﷺ هو الذي أنصف المرأة كُلَّ الإنصاف، وقَدَّر أنوثتها، وصارت في المجتمع الإسلامي شريكة الرجل، وليس أحدهما خصماً للآخر. ومنذ خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه لم يتركه وحده، حتى ولو كانت هذه الوحدة في الجنة، فخلق من آدم حواء ليسكن إليها، ولم يخلقها لتكون ندًّا له وخصماً.

ومنذ اللحظة الأولي للإسلام وبزوغ شمسه على يد سيدنا محمد ﷺ حافظ على أنوثة المرأة لتظل ينبوعاً لعواطف الحنان والرقة، وراعي طبيعتها، فأحَلَّ لها

---

(١) الحلاَّف: كثير الحلف فى الحق والباطل. ومهين: حقير فى الرأى والتمييز، أو كذّاب. وهمَّاز: عَيَّاب أو مُغْتاب للناس. مشَّاء بنميم: يسعى بين الناس بالإفساد. وعُتُل: فاحش لئيم أو غليظ جاف. وزنيم: دَعِيّ أو شرير. والآيات من سورة القلم من الآية ١٠ ـ ١٣.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٢٢.

بعض ما حَرَّم على الرجال، كالتحلِّي بالذهب، ولبس الحرير، ففي الحديث الذي رواه ابن ماجه: «إنَّ هذين» ـ الحرير والذهب ـ «حرامٌ على ذكور أمتي حِلٌّ لإناثهم». وجعل المرأة دائماً في حماية الرجل، لأنه راعي ضعفها، فهي في ظل الرجل مكفولة النفقات، مكفية الحاجات، وهذا من باب الرعاية لها، والسمو بمكانتها.

والإسلام عندما أباح تَعَدُّد الزوجات للرجل لم يطلق له العنان، وإنما قيَّده بشروط، ثم قال في نهاية الشروط التي وضعها: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1]. ثم حذَّر الإسلام الرجل الذي يُعَدِّد الزوجات من ظُلم امرأة لحساب أخرى أو الجور عليها، فقال سبحانه: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾[2]. فهذه الآية تبين أن العدل بين النساء غير مستطاع بمقتضى طبيعة البشر، لأن العدل يقتضي المساواة بين النساء في كل شيء، من مأكل ومشرب ومسكن ومبيت وكسوة، وعلي هذا الأساس نقول للذين ظلموا الحقيقة وافتروا على الإسلام ونبيِّه: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[3]، أن ندرس التشريع الإسلامي في إباحة التعدد لنعلم أنه أباحه لغرض سامٍ وتشريع مُنَظَّم، وليس هذا من باب غَبْن المرأة أو ظلمها، لأن الإسلام عندما أنصفها جعلها شريكة الرجل في تحمل أعظم المسؤوليات في الحياة الإسلامية، وأباح لها أن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، وأن تخرج في طلب العلم وارتياد المساجد وقضاء حاجاتها، وأن تخرج مع الجيش، وهكذا أعطاها الإسلام كل الحقوق التي مُنحت للرجل في حدود القواعد والضوابط الإسلامية.

والنبي ﷺ عدَّد من زوجاته ليس بقصد الشهوة والمتعة وقضاء اللَّذَّة كما يقول هؤلاء الخرَّاصون الأفَّاكون: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[4].

وتعالوا بنا نستعرض حياة الرسول ﷺ:

---

(١) سورة النساء، الآية ٣.
(٢) سورة النساء، الآية ١٢٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية ٦٤.
(٤) سورة الكهف، الآية ٥.

(١) في بداية حياته وفي سن المراهقة لم يَلْحَظْ عليه أحد من الناس انحرافاً في السلوك، أو التردد على دُور البغاء، أو التعرض للنساء، وإنما كان مثالاً عظيماً للعِفَّة والشرف والنزاهة.

(٢) تزوج وهو ابن خمس وعشرين سنة من سيدة فاضلة كريمة، كان المجتمع المكي يلقِّبها بالطَّاهرة، وعاش معها أحلي أيام عمره، ولم يتزوج عليها حتى ماتت ـ رضي الله عنها ـ وكان عندئذٍ ابن ثلاث وخمسين سنة، وهنا نقول بأن عصر الشباب قد وَلَّى، والإنسان في هذه السن لا شك أن رغبته في النساء تقلّ، ولا يستطيع أن يُعدِّد إلاَّ إذا اقتضي الأمر ذلك، كأن تمرض زوجته أو لا تستطيع الوفاء بحقه. لكن مجريات الأحداث أكَّدت على أن سيدنا محمداً ﷺ أنجب من زوجته البنين والبنات. وكانت هي تتمتع بحيوية ونضارة، وقدرة على القيام بالأعمال المنزلية، وتهيئة البيت ليستقبل الزوج العظيم الذي أصبح بعد الأربعين مكلفاً بأداء رسالة عالمية، تُخرج الناس من الظلمات إلى النور. وكان هو الذي يتلقي وحي السماء وينقله إلى أصحابه بدقة وفطانة، وقد أصبح منذ اللحظة الأولي لتنزُّل الوحي عليه مكلفاً بتربية رجال ونساء، وهو الأستاذ العظيم، ولا بد أن يكون قدوة، لأن مقام الأستاذية يتطلب من شاغلها أن يكون مع تلاميذه على قدر كبير من حُسْن القصد، وطهارة المسلك، والدقة والأمانة، فما بالنا ودرجة سيدنا محمد لم يبلغها بَشَر، فهو أعلي من الأستاذية ـ إن جاز التعبير ـ لأنه نبيُّ الأُمَّة، ورسول رب العالمين إلى البشرية كلها، لهذا لم يكن عنده وقت يشغله مع النساء.

(٣) المشركون في بدء الدعوة بعثوا للنبي ﷺ من يقول له: «إن كنت تريد بما جئت مالاً جمعنا لَكَ من أموالنا حتى تكون من أغنانا، وإن كنت تريد سيادة سَوَّدْناكَ علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد النساء جمعنا لك فتياتنا وبناتنا فتخيَّر منهن ما تشاء». لكنه ﷺ رفض هذه المطالب وأخبرهم أن غرضه لا يتعلق بمطالب الدنيا، وأن همته لا تتعلق بالنساء، ولكنه يحمل رسالة الله إلى أهل الأرض.. فلو كان للنبي ﷺ مأرب في النساء لقبل عرض المشركين عليه، لكنه ﷺ صاحب رسالة، والواجبات لديه أكثر من الأوقات، وهمَّته متجهة إلى

إعداد جيل وتربية رجال ونساء يحملون وحي الله الذي ينقله إليهم ثم يقومون بدورهم بنقل هذه الرسالة إلى من يلتقي بهم أو يجلس معهم. ونحن نعلم أن تربية الرجال والنساء أصعب من شق الترع وبناء العمارات، لأن من يربي إنساناً يحاول أن يقتلع منه العادات السيئة وأن يغرس مكانها السلوك الحَسَن، والعادات الطيبة، والخُلُق النبيل. لهذا نجد أن حياة النبي ﷺ حتى سن ثلاث وخمسين سنة لم يكن فيها ـ في هذه المرحلة ـ إلا زوجة واحدة، أنجبت له ستة من الأولاد والبنات، هم: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، والقاسم، وعبد اللَّه.

ولأن النبي ﷺ عاش مع خديجة هذه المرحلة العمرية، وكانت نِعْمَ الزوجة، حَمَلَ لها أطيب الذكريات، وكان دائماً إذا ذبح شاة يبعث لصدائق خديجة، وكان إذا رأي واحدة من صديقاتها يهش لها[1] ويبسط رداءه لتجلس عليه، وكان إذا سُئل عن ذلك يقول: «**إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإنْ حُسْنَ العهد من الإيمان**». فالذين يزعمون بأن النبي ﷺ أكثر من النساء بغرض المتعة نقول لهم: كيف؟ وقد بدأ الرسول ﷺ في التخطيط لبناء دولة إسلامية، ومخاطبة الملوك في قارات المجتمع، آنَ ذاك، إلى غير ذلك من الأمور الكبيرة والأعمال العظيمة التي قام بها هذا النبي العظيم...

إذاً ما هو الغرض من تعدُّد الزوجات؟

إن الغرض من تعدد زوجات الرسول ﷺ يرجع لأمور، أهمها:

(١) لتكون زوجاته معلِّمات لبنات جنسهن، خاصة في المسائل الشرعية التي تتعلق بالمرأة «الفقه الخاص بالمرأة»، فالمرأة عندها الدورة الشهرية، وهذا شيء كتبه الله على بنات حواء، وليس للمرأة دخل فيه. كذلك حالات الحَمْل، والنفاس، والرضاعة، وتربية الأولاد، وهذه أمور تحتاج إلى شخصية نسائية تتحدث عنها، وأن تكون المتحدثة قد تلقَّت تعليماً من الرسول ﷺ، وكان النساء يدخلن في الإسلام ويزداد عددهن. وهناك إعداد واستعداد للهجرة والمجتمع بدأ

(١) يهش لها: يشرح صدره سروراً بها.

يتسع لقبول الدعوة، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. وبما أن بعض الرجال أصبح يدعو إلى الإسلام، كذلك بعض النساء، والمعلم أو المعلمة لا بد أن يكون عندهما القدرة العلمية والفقه الواضح للرد على أي استفسار، لذلك اقتضى الأمر أن يُعَدِّد النبي من زوجاته ليكنَّ مُعلِّمات لبنات جنسهن... لقد ذهبت أسماء الأنصارية تسأل النبي ﷺ كيف تتطهر من الحيض فأمرها أن تغتسل وأن تأخذ فِرْصَةً[1] من مسك تتطهر بها قالت: كيف أتطهر؟ قال: «**سبحان الله!! تطهَّري**». وغلبه الحياء عن أن يعبِّر وكانت السيدة عائشة واقفة، فأخذتها إلى داخل البيت وشرحت لها وعلَّمتها لأن أسماء هذه كانت خطيبة النساء. لهذا كان لا بد أن تتعلم على يد امرأة لتنقل هي بدورها ما تعلَّمته إلى بنات جنسها.

(٢) كان بعض الصحابة يتبتل ويشتغل بالعبادة ويهجر زوجته، فتذهب الزوجة التي هجرها زوجها إلى بيت النبي ﷺ وتشكو زوجها الذي هجرها، ولا يستطيع أحد أن يفهم مشاعر المرأة إلاَّ امرأة مثلها، فكانت زوجة النبي ﷺ تستمع وتحلل مشاعر المرأة وعواطفها واحتياجها إلى زوجها، ثم تقوم أم المؤمنين بنقل هذه الصورة إلى رسول الله ﷺ، فيعالج هذا الخَلَل في خُطَبه ودُروسه، ويصحِّح الأوضاع، ويقول للناس: «**إنَّ لِزَوْجِكَ عليكَ حقًّا**». وهكذا كانت زوجات النبي ﷺ متلقيات عن نساء الصحابة، ناقلات إلى رسول الله ﷺ، فيقوم بالتوجيه والإرشاد.

(٣) كان الرسول ﷺ يتميز عن الناس كلهم بالفطانة والذكاء وبُعْد النظر، فقد رأى بثاقب فكره أن يتألَّف القبائل[2]، ويتودَّد إلى العشائر، فكان يتزوج من القبائل لتأليف القلوب، كما حدث مع أم المؤمنين «صفية بنت حُيَي بن أخطب»، و«ميمونة بنت الحارث الهلالية»، و«جُوَيرية بنت الحارث» وزواجه من القبائل يوثق العلاقات الودية بينه ﷺ وبين لقبه.

(٤) الرسول ﷺ هو القائد العظيم الذي لا يضيِّعُ أبناء أصحابه الذين سقطوا في ميدان الشهادة للدفاع عن الدين وقد تركوا زوجة وأولاداً صغاراً. فمن الذي

---

(١) الفِرْصَة: قطعة قُطْن ـ أو خِرْقَةٌ ـ تستعملها المرأة فى مسح دم الحيض.

(٢) يتألف القبائل: يستميلها.

يعولُ الأولاد؟ ومن الذي يرعي البيت؟ لا شك أن القائد العظيم هو الذي يقوم بذلك، لهذا كان يقول: «**مَنْ تَرَكَ مالاً فَلِوَرَثَتِهِ، ومن ترك عيالاً فعليَّ وإليَّ**». لهذا نراه تزوج بِسَوْدَة بنت زَمْعَة، وأم سلمة، وغير ذلك لأن كان يرعى أمر الأرامل والأيتام ويتردد على البيت وربما تكون السيدة وحدها في المنزل لهذا عقد عليها لتكون الرعاية أكمل..

(٥) هناك عادات أَلِفها العربُ، والإسلام يرفُضها، ولا بد من تغيير هذه العادات، إذاً فعلي القائد يقع العبء العملي بعد النظري في تغييرها. ومن هذه العادات زوجة المتبنَّى، وقد كان الرسول ﷺ تبنَّي زيد بن ثابت، ثم زوَّجه بالسيدة «زينب بنت جحش» وهي العربية الأصيلة، الهاشمية القرشية، فزوَّجها لزيد، ولحكمة أرادها الله أخبر نبيَّه أنَّ زيداً سَيُطَلِّقُ زينبَ وسوف تتزوجها، وهنا ثارت هواجس في نَفْس الرسول عليه الصلاة والسلام: كيف يتزوج بمطلقة مُتَبَنَّاه «أي ابنه» في عُرْف المجتمع؟ لكن الله قال له: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[1]، وكان ذلك بغرض تغيير هذه العادة، لأن المُتَبَنَّي ليس ابناً، وعلي هذا طَلَّق زيدٌ زينب وتزوجها الرسول ﷺ بأمر الله لتغيير هذه العادة.

(٦) لتوثيق عُرَي الصداقة، ولتدعيم روابط المحبة بين الرسول ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر تزوج بابنتيهما لتكريم كل أسرة منهما، وليكون لهما شرف صلة ببيت النبوة «عائشة، وحفصة».

وهناك بعض النساء لا عائل لهن، وقد مات الزوج وكان من بين السابقين إلى الإسلام، فضَمَّ الرسولُ ﷺ زوجته إلى بيته، كَسَوْدَةَ بنت زَمْعَة.

وهكذا كلما قَلَّبْتَ حياة سيدة من أُمَّهات المؤمنين تجد أن وراءها قصة عندما ارتبطت بنبي الإسلام ونالت شرف الانتساب إلى البيت النبوي، وحملت وساماً عظيماً لا يمحوه الزمان، ولا يتغير بتغيُّر الليالي والأيام، وهذا الوسام هو لقب «أم المؤمنين»، لأنها أصبحت أُمًّا بعلمها، وفضل مكانتها، وشرف وضعها، ويحرم

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٧.

على أي إنسان مهما كانت منزلته أن يتطلع للزواج منها بعد رسول الله ﷺ، وصدق الله العظيم إذْ يقول: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[1].

والأعجب أنه كيف استطاع الرسول ﷺ أن يجمع هذا العدد من النساء في هذه السن المتأخرة ومع الأعباء الموكولة إليه من تخطيط للدولة، وتنظيم لمرافقها، والعمل على إنعاشها اقتصاديًا، ومع ذلك هناك تخطيط حربي الغرض منه رد العدو الغاشم الذي يريد أن يدخل إلى المدينة المنورة ويقضي على الإسلام ونبيِّه، ولا بد أن يسبق ذلك عيونٌ ترصُد العَدُوَّ، وتتعرَّف على مقدراته واتجاهاته، وعدد جُنده وحلفائه، ثم مع هذا العبء يستقبل وحي الله، ويُكاتب الملوك، ويستقبل الوفود.. لقد قلنا بأن النبي محمداً ﷺ استطاع بكياسته وحكمته أن يجمع هذا العدد من النساء ليكنَّ معلِّمات، ثم عَدَلَ بينهن في كل شيء، حتى في المبيت، وكان ﷺ لا يميز واحدة عن أخرى، وكان يعلن حتى وهو في حال مرضه عن وفائه لنسائه، ويأمر أصحابه بنقله إلى بيت زوجته صاحبة الليلة في المبيت، وكان في إمكانه وهو مريض أن ينام في بيتٍ واحد، وأنَّ نساءه يسألن عنه، لكنه العَدْلُ، وهو نبي العدل، وناشر لواء الحب، ورسول السلام، ولهذا كان إذا قَصَّرَ في بعض الواجبات يقول فيما رواه أبو داود: «**اللهم هذا قسمي فيما أَمْلُك، فلا تَلُمْنِي فيما تملك ولا أملك**».

وكان بيت النبي ﷺ مضرب المثل في الاستقرار والهدوء والأمن والسكينة، لكنه ﷺ استطاع أن يؤلف بين قلوب نسائه برغم أنهن تحمَّلن معه شظف المعيشة، لأن الشهر وراء الشهر يمضي ولا يوقد في بيت محمد نار، وليس له ولا لأهله طعام إلاَّ التمر والماء ومع ذلك لم يَخْلُ البيت النبوي من مضايقات، لأنه يتكون من بَشَر، لكنَّ الحكمة في معالجة تلك المضايقات كانت تنهي أي خلاف بسرعة، من ذلك مثلاً: أن الله سبحانه عندما فتح لنبيِّه البلاد وحُملت إليه الصَّدقات وبدأ يوزع المال على الفقراء والمساكين، ولم يدَّخر لنفسه شيئاً، حدثت مشاغبات من نسائه، وكأنهن يَقُلْنَ: أنت توزع المال ونحن أحوج إليه، إن بيتنا هو بيت الإمارة

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦.

والإدارة، فكيف نُحْرَمُ حتى ولو من العاملين عليها؟! لكن النبي ﷺ يقول: «**إنَّ الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، لأنها أوساخ الناس**»، أي: الصدقة تكفير عن الذنوب والأخطاء، فمن يأخذها فهو يحمل أوزار أصحابها، ومع ذلك فإن السماء حسمت الموقف، فقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾[1]. أي: يا نساء النبي إنْ كنتن تُرِدْنَ المال لتشترين به عَرَض الحياة الدنيا فسوف أعطيكُنَّ من المال الكثير، ولأن ذلك يخالف ما يدعو إليه الأنبياء، لأن التعلُّق بالدنيا يؤثر في الكيان الديني للإنسان، والله سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلاَّ ما كان خالصاً لوجهه الكريم، فإن أعطيتكن المال لتتمتَّعْنَ به في الدنيا فسوف أُطلقكن.

وقد هزّ هذا الموقف شعور أمهات المؤمنين، فرفضن المال، ورَفَضْنَ المتعة، وأعلنت كل واحدة منهن أنها تختار العبادة الخالصة لله تعالى، والحب لرسوله، والقرب منه، لتنال كل واحدة سعادة الدنيا وفلاح الآخرة، لهذا قال الله لهن: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾[2]. وهذا فضل الله، فهل يعلم ذلك خبثاء النيَّة الذين يغمزون في حياة النبي ويلمزون؟!

والجدول الآتي يبين أسباب الزواج من كل سيدة فاضلة:

(١) السيدة خديجة بنت خويلد

أعقل أهل زمانها وأطهر نساء مكة، وفضلى الفضليات. كانت تُنْعَتُ في زمن الجاهلية بالطاهرة. وكانت تسلِّي النبي ﷺ وتهوِّن عليه ما يلاقيه.. هي الزوجة الأولى، تزوجها وسنها أربعون سنة وسن النبي ﷺ عند الزواج منها خمس وعشرون سنة.

(٢) السيدة سودة بنت زمعة

أول امرأة تزوجها النبي ﷺ بعد وفاة السيدة خديجة كانت قد تزوجت بابن عمها

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٢٩.

السكران بن عمرو من بني عامر، وقد أسلما معاً في أول الدعوة، واشتد عليهما عذاب قريش، فهاجرا إلى الحبشة، ولما عادا توفي زوجها وبقيت هي وحيدة. أهلها وأهل زوجها كفَّار. وكانت امرأة مسنَّة لا تجد من يقوم على رعايتها ولا تدبير شأنها، فتزوجها النبي ﷺ أولاً: ليرعي أمرها، وثانياً: ليتألف قلوب بني عبد شمس قومها، وثالثاً: ليوثق الصِّلة بينه وبين أخواله، حيث تمتُّ إليهم بصلة القربى.

(٣) السيدة عائشة بنت أبي بكر

هي البكر الوحيدة التي تزوجها النبي ﷺ، وكانت مخطوبة قبل أن يخطبها النبي ﷺ «لجبير بن مطعم بن عديّ» ولما فسخت الخطبة لأن جبيراً كان مشركاً، وقد أصر على أن أبو بكر يترك الإسلام حتى يتمم الزواج من ابنته، لكنَّ أبا برك رفض، وفُسِخَتِ الخطبة. وتوثيقاً لعُرَي الصداقة بين النبي ﷺ وأبي بكر خطبها وهو في مكة، وأتمَّ الزواج بعد الهجرة إلى المدينة. كانت عالمة نسَّابة، لبيبة ذكية.

(٤) السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب

ترمَّلت وهي في ريعان الصبا، حيث توفي زوجها «خُنيس بن حُذافة». وكانت مع زوجها من أوائل المسلمين، وشهد زوجها غزوة بدر وغزوة أُحُدٍ وكان بطلاً عظيماً. ولما ترمَّلت كان عمر يبحث لابنته عن زوج كفء، فعرضها على أبي بكر فسكت ولم يرد، ثم عرضها على عثمان، فسكت هو الآخر وقد أضمر عمر في نفسه الحزن منهما، ولكنْ كان سكوتهما لأن رسول الله ﷺ ذَكَرَها، وأراد أن يجبر خاطرها بعد موت زوجها البطل، وأن يساوي عمر بأبي بكر في المصاهرة الكريمة، وتلك سياسة حكيمة، فيها تدعيم للموَدَّة، ووفاء للأموات.

(٥) السيدة هند بنت أبي أمية «أُمّ سَلَمة المخزومية»

أسلمت هي وزوجها عبد اللَّه بن الأسد المخزومي، واشتد عليهما عذاب قريش، فهاجرا إلى الحبشة. كانت تحب زوجها وتجلُّه وتُكِنُّ له الوفاء، ثم عادا من الحبشة وهاجرا إلى المدينة وشهد زوجها بدراً وأُحُداً، وأبلي فيهما بلاءً حسناً، وفي السنة وفي السنة الثالثة من الهجرة لقي زوجها ربه. وعاشت وحيدة في بلاد الهجرة. فخطبها أبو بكر وعمر وبعض الصحابة ليقوموا على رعاية أمرها وتدبير

شأنها، فلم تقبل، لأن أولادها صغار، وهم في حاجة إلى رعايتها، لكنَّ رعاية الأيتام عِبْءٌ، وهي مُسِنَّةٌ، وهنا تقدَّم النبي العظيم لخطبتها، فقالت: يا رسول الله، أنا امرأة مُسِنَّة ذات عيال وعندي غيرة شديدة. فكان رد الرسول ﷺ عليها بأنه أَسَنُّ منها، وأمَّا الأيتام فَمَنْ لهم سوى رسول الله ﷺ؟ وأما الغيرة فأدعو الله أن يُذْهِبَ ما بنفسك من غيرة. علاوة على ذلك كانت سيدتنا هند من بيت شريف كريم، أراد الرسول ﷺ أن يوطِّدَ العلاقة بهذا البيت لتدوم المودَّة والمحبة.

(٦) السيدة رملة بنت أبي سفيان «أُمّ حبيبة»

من السابقات إلى الإسلام هي وزوجها عبيد اللَّه بن جحش الأسدي، وتحت وطأة العذاب من قريش ـ خاصة من أبيها أبي سفيان ـ هاجرت مع زوجها إلى الحبشة، وهناك ولدت بنتها «حبيبة»، ثم ارتدَّ زوجها عن الإسلام وحاولَ أن يردَّها عنه فأبت، وصبرت على دينها، وعاشت وحيدة في الغربة تعاني مُرَّ العذاب، لأنها لو عادت إلى مكة فإن أباها من زعماء المشركين. إذاً لا بد من يدٍ حانية تمسح عنها كآبة الحزن وتواسيها وهي الصامدة الصابرة. وأرسل النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة يفوضه في أن يطلب يدها للنبي ﷺ، وتزوجها النبي ﷺ وهو في مكة وهي في الحبشة. فهو زواج رعاية وحماية حتى لا تُترك امرأة وحيدة تلعب بها الظروف. ولما بلغ أمر الخطبة إلى أبي رملة «أبو سفيان» قال عن سيدنا محمد ﷺ: هو الفحل لا يُجْدَعُ أنفه، أي: إن الرسول كُفْءٌ شهم، كُفْءٌ لأي امرأة، ونسبه يشرِّف. «والفضل ما شهدت به الأعداء».

(٧) السيدة زينب بنت جحش

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يتزوج من السيدة زينب زوجة متبنَّاه، ليبطل قاعدة جَرَي عليها العُرْف، واعتبرها الناس أنها قاعدة أصيلة وهي «التبني»، فأبطل الإسلام التبنِّي وحرَّمه، وهَدَم القاعدة من أساسها، وأمر النبي ﷺ أن يتزوج بمطلقة مُتَبَنَّاه وقال الله لنا: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الأحزاب: ٥].

(٨) السيدة زينب بنت خُزَيْمَة «أُمُّ المساكين»

كانت امرأة متقدمة في السن وهي من السابقات إلى الإسلام مع زوجها الأول

عبد اللّه بن جحش، وقد استشهد في غزوة أُحُد وأصبحت بعد استشهاده بلا عائل. كانت تعرف في الجاهلية قبل الإسلام بأنها أم اليتامي والمساكين، لأنها كانت كريمة سخية، تعطف على الفقراء والضعفاء والأرامل واليتامى، فتزوجها النبي ﷺ رعاية لظروفها الاجتماعية، وجبراً لخاطرها، حيث لا مطمع فيها للرجال.

(٩) السيدة جويرية بنت الحارث

هي من بني المصطلق، وكان أبوها يكنّ العداء الشديد لرسول الله ﷺ. وبنو المصطلق من الأحزاب الذين ساعدوا المشركين في غزوة الأحزاب. وكانت هذه السيدة متزوجة من ابن عمها «صفوان بن مالك» وقُتل عنها في يوم الأحزاب، وكانت من بين الأسرى، وكان اسمها «بَرَّة»، وقد خاطبت النبي ﷺ بقولها وهي أسيرة: «أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه وقد أصابني من البلاء ما قد علمت فجئتُكَ أستعين بكَ على أمري». كانت تتكلم وفي صوتها نبرة أسًى، لأنها كانت عزيزة الجانب في قومها، وهي اليوم أسيرة وقد وقعت في سهم «ثابت بن قيس». فقال لها الرسول ﷺ: «**فهل لكِ من خيرٍ في ذلك؟**»، فقالت في لهفة: «وما هو يا رسول الله؟ فقال: «**أقْضي عنكِ كتابتك وأتزوجك!**» يعني أدفع الثمن الذي يطلبه قيس وأتزوجك. وتهلل وجهها فرحاً. وقصد الرسول بذلك: أولاً: أن يرحم ضعفها حتى لا تُباع في السوق كما تُباع الجواري. ثانياً: أن يوطِّد العلاقة بين بني المصطلق ـ وهم قبيلة كبيرة ـ والرسول ﷺ يرجو لهم الخير إذا دخلوا في الإسلام، ولعل هذا الزواج يكون فاتحة خير. وغيَّر الرسول ﷺ اسمها من «برّة» إلى «جويرية» وكان هذا الزواج خيراً لعشيرتها وأهلها. فأسلم أبوها وقومها، وتمَّ عتق مائة بيت من بيوت قومها، وحقًّا كان رسول الله ﷺ بني الرحمة والسلام.

(١٠) السيدة صفية بنت حُيَيّ

هذه السيدة أبوها حُيَيُّ بن أخطب زعيم يهود بني قريظة، وكانت متزوجة من «كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق»، وهو شاعر يهودي قُتل يوم خيبر، وقد وقعت في الأَسْر، وأخذها صحابي يسمي «دِحْيَة»، لكن أحد الصحابة قال لرسول الله ﷺ: إن صفية لا تصلح إلاَّ لكَ، لأنها بنت أمير القوم، ومن أعقلهم، وقد أُصيبت في أعز أهلها، فَاجْبُرْ خاطرها وضُمَّها إليك. وقد استجاب النبي ﷺ لهذه المشورة، وأسلمت، وتزوجها النبي ﷺ.

(١١) السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية

هذه السيدة أخت أم الفضل لبابة الكبرى، زوجة العباس عم النبي ﷺ كما أنها أخت أسماء زوجة جعفر بن أبي طالب، وأخت لسلمى زوجة الشهيد حمزة، وأخت أم خالد بن الوليد وقبيلتها «بنو هلال». وقد أشار العباس عم النبي ﷺ عليه أن يتزوجها ليوثق الصلة بهؤلاء جميعاً. وكان هذا الزواج فيه الخير والبركة فبسببه دخل خالد بن الوليد في الإسلام، وأسلمت قبيلة بني هلال وهم من أشرف القبائل العربية علاوة على توثيق الصلة بمن ذكرنا.

شخصيات في بيت النبوة بملك اليمين

(١) السيدة مارية القبطية

هدية مصر إلى النبي العظيم، قدَّمها المقوقس حاكم مصر إلى حاطب بن أبي بلتعة الذي حَمَلَ رسالة من النبي العظيم إلى المقوقس، فكان رده بهدايا منها مارية. عاشت في بيت النبوة بعد أن أسلمت وحَسُنَ إسلامها. وكانت صَوَّامَةً قَوَّامَةً. ومضت عليها سَنَةٌ وهي ببيت النبوة ثم حملت بإبراهيم «الابن السابع للنبى ﷺ»، وقد مات صغيراً، وعاشت صوَّامة قوَّامة حتى لقيت ربها.

(٢) ريحانة بنت زيد

هي من بني قريظة وقد وقعت في الأسر.. وعرض عليها النبي ﷺ الزواج، فقالت: أكون في ملك يمينك لأنني عاهدت زوجي ألاَّ أتزوج بعده أبداً. وعاشت كريمة عزيزة تجد الحب والحنان في بيت النبوة بعد هذا توصل الحديث عن أمهات المؤمنين.

السيدة خديجة بنت خويلد

اسمها ونسبها

هي أُمُّ المؤمنين خديجة بنت خُوَيْلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ بن كلاب بن مرة.

وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن هَرِم بن رواحة. وكانت تُدْعَي في الجاهلية: الطاهرة، العاقلة، وتكنَّي بأُمِّ هند.

زواجها قبل النبي ﷺ

أراد ورقة بن نوفل ـ وهو ابن عمها وأحد حكماء العرب ـ أن يتزوجها بعد أن ذُكرت له، ولكن الزواج لم يتم. ولكن تزوجها عتيق بن عائذ بن عبد اللَّه المخزومي. . فولدت له ولداً أسمته «عبد اللَّه»، وبنتاً أسمتها «هنداً»، ثم مات عنها فتزوجها أبو هالة، واسمه هند بن زرارة التميمي، فولدت له ولداً أسمته «هنداً» وبنتاً أسمتها «زينب» ثم مات عنها.

خديجة تقبل الزواج بمحمد ﷺ

وكانت سيدتنا خديجة تعيش في المجتمع المكي طاهرة السيرة، كريمة النفس، سخية اليد، عفيفة الذيل، لها مال وثروة، تستأجر الرجال ليقوموا لها بالتجارة في مالها بشيء تجعله لهم من المكسب. وكانت تتخير الرجال الذين عُرفوا بالأمانة والصدق، واشتهرت سيرتهم بالعفة وضبط النفس والحلم. وكان سيدنا محمد ﷺ شابًّا من شباب قريش اجتمعت فيه الخصال المذكورة، علاوة على «أنه كان وسيم الطلعة، مبسوط الجبين، واسع العينين، أدْعَجْهما، يشوب بياضهما في الجوانب حُمرة خفيفة تزيد في قوة جاذبيتهما، وذكاء نظرتهما، له أهداب طوال مستوي الأنف دقيقه، مفلج الأسنان، كث اللحية، طويل العنق، عريض الصدر، رحب الساحتين، أظهر اللون، يسير ملقياً جسمه إلى الأمام، مسرع الخَطْو ثابته، على ملامحه سيماء التفكير والتأمل، وفي نظرته سلطان آمِرٌ، يخضع الناس لأمره».

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه «حياة محمد»: «هذا الشخص العظيم كان يعيش في مكة، وكان له أصدقاء، وكانوا إذا اجتمعوا يجدونه قليل الكلام، ميَّالاً للجدِّ من القول. يمزح ولا يقول إلا حقًّا. وقد عُرف بثبات العزيمة وقوة الإرادة، عرفه الناس بالجود والكرم، والوفاء الكامل، ومن كانت تلك صفاته لا بد أن تتخيره السيدة الفاضلة اللبيبة الكريمة ـ خديجة ـ ليتاجر لها في مالها. وقد وافق وخرج فعلاً بتجارة إلى الشام، وكان لها غلام يُدعي «مَيْسَرة»، رافَقَ سيدنا

محمداً ﷺ في هذه الرحلة، فرأي العجب في صحبته فقد رأي أن الشمس عندما تشتد حرارتها تأتي غمامة فتظلل محمداً ومن يُجاوره.

كذلك نزل محمد وميسرة تحت شجرة يستريحان، فجاء راهب كان في صومعة بالقرب من هذه الشجرة، وقال لميسرة: مَنْ هذا الرجل؟ قال ميسرة: هو رجل من قريش من أهل الحرم. قال الراهب: ما نَزَلَ تحت هذه الشجرة قط إلا نبيّ!

وسارت القافلة إلى الشام بعد ذلك، وباع محمد وربح أكثر مما كان مقدراً، وبمدة بسيطة قبل أن يبيع التجار الذين معه، واشترى ما أراد. ولما رجع من الرحلة سلَّم صاحبة المال مالها وانصرف. وكانت سعيدة بالربح، إلاَّ أنها سعدت أكثر عندما سمعت أخبار الرحلة من «ميسرة»، حيث ذكر لها ما شاهده في الرحلة وما رآه، وما قاله الراهب، وهنا أسرعت خديجة بالتوجه إلى وَرَقَة بن نوفل، وهو أحد الحنفاء الذي قرأ في الكتب السابقة، وعرف من أخبار النبيين الكثير. فلما سمع من خديجة ما سمع اعتدل في جلسته وقال: سُبُّوح قدُّوس، رب الملائكة والروح، إنْ صحَّ ما ذكرتِ يا خديجة فإن هذه أماراتُ وعلامات النبي الذي آن أوانه، وسيُبعث من مكة، وإنه لنبي هذه الأمة.

هنا تحركت عواطف السيدة خديجة وشعرت بشيء من الرضا والارتياح، وتقرر في نفسها أمراً.

زواج موفَّق

تقول بعض الروايات: إن خديجة أرسلت نفيسة بنت منية صديقتها إلى محمد ﷺ تسأله عن سبب عزوفه عن الزواج إلى اليوم، فأجابها: «**ما بيدي ما أتزوج به**». قالت: فإن دُعيت إلى الشرف والكفاءة والجمال والمال؟ قال: «**من تَعْنِينَ؟**»، قالت: خديجة. فقال محمد ﷺ في نفسه: «**خديجة التي يرغب فيها أغنياء القوم وعظماؤهم وهي تردُّهم في أَنَفَةٍ وكبرياء تَقْبلني أنا اليتيم الفقير؟**»، ولكن سرعان ما تنبَّه إلى الواقع المحسوس أنَّ مَنْ مثله في رُجولته الفذة وخُلقه الكامل ما يجعل خديجة تميل وترغب إليه، هي وأمثالها من فضليات النساء.

وقد جاء في سيرة ابن هشام: أن محمداً ﷺ انطلق يسعي نحو الكعبة فإذا بكاهنة تلقاه في الطريق وتسأله قائلة: جئت خاطباً يا محمد؟ أجاب غير كاذب: «كلا»، فتأملته برهة ثم هزت رأسها وهي تقول: ولِمَ؟ فوالله ما في قريش امرأة ـ وإن كانت خديجة ـ إلا وتراك كُفئاً لها. ومضت أيام قلائل ثم تلقّى دعوة خديجة، فسارَعَ إليها وفي صحبته عَمَّاهُ: أبو طالب وحمزة. وفي بيتها كان هناك بعض أقاربها. وتكلم أمامهم أبو طالب الذي قال: أمَّا بعد: فإن محمداً ممن لا يُوازَنُ به فَتَيٌ من قريش إلاَّ رجح به شرفاً ونُبلاً، وفضلاً وعقلاً، وإنْ كان في المال قَلٌّ فإن المال ظلٌّ زائلٌ، وعارية مُسْتَرْجَعَة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك، فأثنى عليه عمها عمرو بن أسد، وزَوَّجَها منه.

ومرت أيام وأيام والزوجان ينعمان بأطيب حياة زوجية بينهما وبالأُلفة والاستقرار، وقد رُزقا بالبنين والبنات، وأولادها منه ستة: القاسم، وعبد اللَّه، وقد ماتا في الصغر، وزينب ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة. ومضت الأيام ومحمد ﷺ سعيدٌ ببناته ـ علي غير ما أَلِفَتِ العربُ ـ هانئ بحياته الزوجية.

وكان ﷺ ميالاً إلى العُزلة، ثم حُببت إليه الخلوة، فكان يذهب إلى «غار حراء» يتحنّث فيه الليالي ذوات العدد، حتى يعود إلى أهله فيتزود لمثلها، وخديجة في كل هذا ترقبه وتتابع خطواته بدون مَلَل أو شكوي أو نفور، وكأنها تترقب المكنون في عالم الغيب لتسعد به.

النبي البشير

وبينما محمد ﷺ في غار حراء يتعبد إذْ نزل عليه مَلَكٌ من السماء فقال: «يا مُحمد، اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ؟». فأخذه وضمه إلى صدره ثم أرسله وقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»، فأخذه وضمه إلى صدره ثم أرسله وقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[1]. ورجع محمد ﷺ

(١) سورة العلق، الآيات ١ ـ ٥.

إلى خديجة يرجف فؤاده ويقول: «**زَمِّلُوني زَمِّلُوني**». ثم يقول لخديجة: «**لقد خشيتُ على نفسي**»، ثم أخبرها الخبر، ولكن خديجة التي عرفته عن قرب ولمست فيه كل صفات الكمال تقول وهي تنظر إليه نظرة حانية ملؤها العطف والتقدير:

«كلا والله لا يخزيك الله أبداً». ثم تعلل ذلك فتقول: «إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتكسب المعدومَ، وتعين على نوائب الحق». ومَنْ أعرف الناس بدخيلة الرجل من زوجته؟ فهي ألصق الناس به، وأقربهم إليه، فشهدت بما عرفت، وحكمت بما سمعت، وهي اللبيبة الطاهرة.

ثم تُدثِّره في فراشه ويغط الرسول ﷺ في نومه. ثم تجمع بناتها من حولها وتبشرهن بما حدث للأب العظيم، ثم تذهب خديجة إلى ورقة بن نوفل وتقص عليه ما حدث، فيرد عليها ورقة: «أَبْشِرِي يا بنت العم، هذا هو الناموس الذي أنزله الله على موسى». وعندما ترجع خديجة إلى بيتها يكون الرسول ﷺ قد استيقظ من نومه ويقول: «**يا خديجة، لقد وَلَّي عهد النوم وذَهَبَ عهد الراحة**». ثم تلا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[1]. وهنا تعلن خديجة استجابتها على الفور، وأنها مؤمنة برسالته، مُصَدِّقة لما يقول.

ومنذ تلك اللحظة وهي واقفة بجواره، تشد أزره، وتعينه على احتمال أقصي ضروب الأذي والاضطهاد من قومه. بذلت من مالها، وضحَّت في سبيل ما جاء به، وذاقت مرارة الحرمان عندما حُوصِرَ الرسول ﷺ في شِعْب بني هاشم. إنها ربيبة عز وجاه، ولكن حبها لعقيدتها جعلها تصبر على أقسي أنواع البلاء بجوار زوجها الوفي، رسول الله ﷺ إلى خير أُمَّة أُخرجت للناس.

اختبار وسلام

كان الرسول ﷺ يخبر خديجة عن جبريل، رسول الوحي الذي يأتيه بخبر

---

(١) سورة المزمل، الآيات ١ ـ ٥.

السماء، فقالت: «أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟» فلما جاءه جبريل قال لخديجة: «هذا جبريل قد جاءني». قالت: «قم فاجلسْ يا ابْنَ عم على فخذي الأيسر». فقام ﷺ فجلس عليها. فقالت: «هل تراه؟»، قال: «**نعم**». قالت: «فتحول واقعد على فخذي الأيمن». فتحول ﷺ كما أرادت، فقالت: «هل تراه؟»، قال: «**نعم**». فألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها ثم قالت: «هل تراه؟»، قال: «**لا**». قالت: «يا ابن عم اثبتْ وأبْشِرْ، فوالله إنه لَمَلَكٌ وما هو بشيطان». ثم غاب جبريل عليه السلام، وذهبت خديجة تعد طعاماً لرسول الله ﷺ ونزل جبريل عليه السلام على الرسول ﷺ فقال: «يا محمد، هذه خديجة قد أتتك بإناء فيه طعام فإذا جاءتك فاقرأ عليها السلام من ربها». فقال ﷺ: «**يا خديجة، هذا جبريلُ يُقْرِئُكِ مِنْ ربك السلام**». قالت خديجة: «الله هو السلام، ومنه السلام، وعلي جبريل السلام».

منزلتها في الجنة

روي أن فاطمة رضي الله عنها قالت لأبيها ﷺ: «لا يهنأ لي عيش حتى تسأل جبريل عن أمي». فقال: «**هي بين مريم وسارة في الجنة**».

وروي أن جبريل قال للنبي ﷺ: «بَشِّرْ خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخبَ فيه ولا نَصَبَ». كما رُوي أنه ﷺ خط أربعة خطوط وقال: «**أتدرون ما هذا؟**»، قالوا: «الله ورسوله أعلم». فقال: «**أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم زوجة فرعون**».

ذكري دائمة

خديجة هي أول مَنْ آمَنَ برسالة محمد ﷺ. شَدَّتْ من أزره، وبذلت من مالها، ووقفت بجواره، وكانت بمثابة الأم الحنون، والأخت البارَّة، والزوجة الكريمة، تواسيه وتخفف عنه الآلام عندما يرجع مهموماً، ولم تجعله يحمل هَمَّ الأولاد، فكانت ترعاهم وتكفيه كل شيء، ولا نستطيع أن نقول فيها إلا كما قال الشاعر:

ولـو أنَّ النسـاء كَمِثْـلِ هَـذِي لَفُضِلْـتُ النسـاءَ علـى الـرجـال

ولقد كانت ذكراها الطيبة العطرة على لسان الرسول ﷺ، وخيالها لم يفارقه، ولذلك كانت عائشة تقول: «كان الرسول ﷺ إذا ذكر خديجة أَثْنَى عليها وأحسنَ الثناء. قالت: فَغِرْتُ يوماً وقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت من الدهر، وقد أَبْدَلَكَ الله خيراً منها». فتغيَّرَ وجهه ﷺ وزَجَرَ عائشة غاضباً وقال: «**والله ما أبدلني الله خيراً منها: آمنت بي إذْ كفر الناس، وصدقتني إذ كذَّبني الناس، وواستني بمالها إذْ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء**». فقلت بيني وبين نفسي: «لا أذكرها بسوء أبداً».

ولم يكن ﷺ يسأم من الثناء عليها والاستغفار لها. وكان إذا ذبح شاة يقول: «**اذهبوا بهذه إلى أصدقاء خديجة**». وكثيراً ما يذكر أصدقاءها بالخير. وكان يرتاح لأقربائها، والوفي شيمته الوفاء لمن أحب.

وفاتها

عاشت سيدتنا خديجة رضي الله عنها بمكة تحيط الرسول ﷺ بعطفها، وتحنو عليه الحنو كله، وشاركته في محنة الحصار بإيمان راسخ، ولمَّا فُكَّ الحصارُ ـ وكان الاضطهاد قد بلغ منها ما بلغ ـ علاوة على أن سنها قد تقدمت، حيث أصبحت في الخامسة والستين من عمرها، رقدت مريضة منهكة نتيجة ما أَلَمَّ بها من وَهَنٍ أخذ يدب في جسمها، وهي وإنْ كانت تتشبث بالحياة كي تظل على صلة بالهادي الأمين حتى يُبَلِّغَ دعوة ربه إلا أن قَدَرَ الله إذا جاء لا يُؤَخَّرُ، فأسلمت روحها بين يدي الرجل الذي أحبته منذ رأته وصدقت برسالته حين سمعت بها. وكانت وفاتها بمكة قبل الهجرة بثلاث سنوات، في شهر رمضان، وقد نَزَلَ ﷺ في حُفْرَتِها وأضجعها في مَقَرِّها الأخير وهو دامع العين، لأنه فَقَدَ بفقدها السكن النفسي، وسُمِيَّ العامُ الذي ماتت فيه عامَ الحزن.

وقد حزن عليها حزناً شديداً. وعاش ﷺ بعدها يؤدي رسالة ربه. ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وقد كان ﷺ يتذكر خديجة رضي الله عنها في كل

مواقفها التي انتصرت له فيها، لأنها كانت ملء قلبه. فرضي الله عنها، وأحسن جزاءَها جزاءَ ما بذلت من تضحية في مؤازرة الدعوة الإسلامية ورسول الدعوة وما عند الله خير وأبقى.

أم المؤمنين سودة بنت زمعة

يظن كثير من الناس أن عظمة الرجل لا تكتمل إلاَّ إذا امتلك الضِّياع وحاز تحت يده النساء والخدم. ولذا يفتري كثير من المستشرقين على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، ويتجنُّون على عظمة هذا النبي الكريم، ويتَّهمونه بأنه رجل قد أخذ بعقله الهوى، وأن عظمته كانت في كل شيء حتى في شهوات الدنيا.

والمتأمل في تاريخ هذا النبي العظيم يجد أن حياته قبل الزواج تُعْرَفُ بالعفَّة، وتُوصف بالفضيلة، مع أن البيئة العربية كانت النساء فيها متبرِّجات، يُبدين الزينة، ولا ترد المرأة يَدَ لامسٍ، ومحمد ﷺ الذي أعده الله للرسالة، له من وسامة الطلعة، وريعان الفتوة، وجمال الرجولة، ما يهفو إليه قلب كل امرأة، وتتمناه كل فتاة.

ولكنه مع انتشار فساد الأخلاق وانهيار القيم ظل متمسكاً بشرفه يصون عرضه عن كل دنس، ويربأ بنفسه عن كل ما يصله بأفعال الجاهلية، حتى إذا بلغ من العمر خمساً وعشرين سنة ارتبط بالسيدة خديجة رضي الله عنها زوجة وفية، طاهرة نقية، شريفة عفيفة، بعد أن مات زوجها عنها. وعاش النبي الكريم معها عيشة كلها حب ونقاء، مع إنجاب البنين والبنات، إلى أن بلغ من العمر أكثر من خمسين عاماً وهو راضٍ عن حياته، سعيد بزواجه، ولم يشرك معها زوجة أخرى، حتى إذا ما انتقلت إلى جوار ربها راضية مَرْضية عاش بعد وفاتها يرعي بيته، ويجاهد في سبيل تبليغ رسالته، والأيام تمضي ثقيلة الخطوات، وهو مرهق بأعباء الجهاد في تبليغ الرسالة، وخلو بيته من الزوجة الحبيبة الوفية التي كانت تشجعه وتواسيه وتشد من أَزْره، وتجعله لا يفكر إلا في أداء الرسالة. وكان الصحابة يلاحظون آثار الحزن بادية على وجهه، فيشفقون عليه، ويريدون أن يفاتحوه لسؤاله عَمَّا يشغله علَّهم

يستطيعون تقديم ما يملكون، ولكنهم كانوا يتهيبون ذلك إجلالاً وتقديراً لشخصه النبيل. حتى إذا ما انتهت أيام الحداد على خديجة تقدمت السيدة «خولة بنت حكيم» وقالت: «يا رسول الله، كأني أراك قد دخلتك خَلَّةٌ[1] لفقد خديجة». فأجاب: «**أجَلْ، كانت أُمَّ العيال وربة البيت**». فاقترحت عليه أن يتزوج. فقال لها: «**مَنْ بَعْدَ خديجة؟**». فردَّت عليه «خَوْلَة» وقالت: «عائشة بنت أحب الناس إليك». فقال: «**ولكنها لا تزال صغيرة يا خولة**»، فقالت: «تخطبها اليوم إلى أبيها ثم تنتظر حتى تنضج». قال: «**ولكن، من للبيت يرعي شؤونه؟ ومن لبنات الرسول يخدمهن؟**»، فقالت خولة: «هل لَكَ في ثيّبٍ؟، قال: «**ومَنْ هي؟**»، فأجابت: «إنها «سودة بنت زمعة» المؤمنة المهاجرة، التي فقدتْ زَوْجَها بعد الأوبة من الهجرة للحبشة، وهي مُعرضة لأن يعذبها قومها ويفتنوها، والزواج بها فيه كفالة لها، وتأليف لبني عبد شمس». فوافق النبي الكريم على الزواج منها.

ومنذ تلك اللحظة دخلت «سودة» التاريخ وتبوأت مكاناً مرموقاً تهفو إليه النفوس، وتتطلع إليه العيون.

نَسَبُ السيدة سَوْدة

هي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس، العامرية، القرشية، أول زوجة لرسول الله ﷺ بعد خديجة رضي الله عنها. وأمها الشموس بنت قيس بن عمرو بن زيد بن لبيد من بني النجار من الأنصار. فمن ناحية الأب قرشية عربية، ومن ناحية الأم من بني النجار أخوال الرسول ﷺ.

زواجها الأول

تزوجت سودة ابن عمها السكران بن عمرو من بني عامر بن لؤي، وقد عاشت معه عيشة طيبة هنية، حتى بدأ الرسول ﷺ يدعو بدعوته، فكانت من

(١) الخَلَّة: الحاجة، أو اضطراب الشيء وعدم انتظامه.

السابقات للإسلام، وكذا زوجها، وتعرَّضا للعذاب بسبب الإسلام، فهاجرا إلى الحبشة، وكان معهما أخوها مالك بن زمعة وزوجته عمرة بنت السعدي بن وقدان، ومن أسرة زوجها أخواه سُليط وحاطب وَلَدا عمرو بن عبد شمس، وابن أخٍ لزوجها عبد اللَّه بن سهيل بن عمرو، ومن النساء أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو.

وهكذا نري أن معظم الأسرة التي كانت فيها سودة قد هاجرت في سبيل الله، مضحية في سبيل العقيدة بالبُعد عن الوطن، متحمِّلة أقسي ما يكون في سبيل التمسك بالمبدأ، وفي وسط أسرة لها قَدَمُ السَّبْق في الإسلام.

رؤيا صادقة

ذكر ابن سعد في طبقاته الكبري أن السيدة «سودة بنت زمعة» وهي زوجة لابن عمها ـ السكران بن عمرو ـ قد رأت في المنام «أن النبي ﷺ أقبل يمشي حتى وطئ على عنقها. فأخبرت زوجها بذلك، فقال: لَئِنْ صَدَقَتْ رؤياك لأَمُوتَنَّ وليتزوجنَّك رسول الله ﷺ». فقالت «سودة» لزوجها: «حجراً وستراً» كأنها تنفي ذلك.

ثم رأت بعد ذلك في المنام أيضاً «أن قمراً انقضَّ عليها من السماء وهي مضطجعة»، فأخبرت زوجها بذلك فقال لها: «وأبيكِ لئن صدقتْ رؤياكِ لم ألبث إلا يسيراً حتى أموت وتتزوجين من بعدي...».

عودة إلى الوطن

وعادت الأسرة المهاجرة إلى مكة حيث الرسول الحبيب يبلغ دعوة ربه وينشر رسالة السلام والأمان، وكانت سودة متعطشة إلى لقاء الهادي الأمين، حيث يتنزل عليه الوحي من السماء وآيات القرآن البيِّنات تتنزل جلية ندية، تنير القلب، وتثبت الفؤاد، وتهدي لِلَّتي هي أَقْوَمُ. وما لبث السكران زوج سودة أن انتقل إلى جوار ربه قريرَ العين، رضيَّ النفس، لأنه مات على أرض الوطن، وقد اكتحلت عيناه برؤية رسول الله ﷺ، وترك زوجته وديعة بين إخوانه من المسلمين، وعلي رأسهم

النبي الكريم. وشعرت «سودة» بِلَوْعَة الفراق، وخافت على نفسها من قومها أن يبعدوها عن جو الإيمان وهي ليس فيها مطمع للرجال، لأنه لم يكن لها من الجمال أو الثراء نصيب، ولكن الذي لها أنها زوجة لرجل من السابقين إلى الإسلام، وأنها هاجرت إلى الحبشة ولَقِيَتْ من الأذي في سبيل العقيدة الكثير.

موافقة الرسول

عندما ذَكَرَتْ خَوْلَةُ لرسول الله ﷺ «سَوْدَةَ» وأَمْرَها، رَضِيَ بها زوجة إكراماً لمنزلة زوجها، وتطييباً لخاطرها وسابقتها للإسلام، وليعولها بعد أن ماتَ العائل، لأنه ﷺ هو القائل: «**مَنْ ترك مالاً فلورثته، ومن ترك أولاداً فعليَّ وإليَّ**». وهو الذي وصفه ربه بأنه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

وذهبت «خولة» لبيت «سودة» تزف إليها البشري بهذا النبأ السعيد، وما إنْ أخبرتها بذلك حتى داخلتها رهبة من جلال هذا الزواج. إنها قاست نفسها بخديجة ذات المال والجمال، فعرفت أن الرغبة لهذا الزواج نفسية الرسول العطوف الودود، فكادت أن ترفض، ولكنها ما لبثت أن سكنت ورضيت. وبَنَي بها الرسول ﷺ في رمضان من السنة العاشرة من البعثة، ودخل عليها بمكة، وهاجرت معه إلى المدينة، ولقد أرضاها كل الرضا أن تأخذ مكانها في بيت رسول الله ﷺ بعد خديجة وقبل عائشة ـ رضي الله عن الجميع ـ وأنها أصبحت في بيت النبوة يُسعدها أن تري النبي ﷺ صباحاً ومساءً تخفف آلامه، وتخدم عياله، وترعى شؤونه، لأنها لو تُركت وشأنها ما تطلَّع إليها إنسان. ولقد كانت رضي الله عنها طويلة اليد بالخير والتصدُّق على الفقراء، وكانت تخفف آلام المكروبين. ولقد عاشت في بيت رسول الله ﷺ حتى جاءت عائشة بنت أبي بكر زوجةً شابةً، فأفسحت لها المكان الأول في البيت، وآثرت «بإخلاص» هذه الزوجة الجديدة بالعطف والمحبة. ثم وفدت بعد ذلك إلى بيت رسول الله ﷺ زوجات أخريات اقتضت الحكمة أن يلتحقن بالبيت النبوي الكريم، وأن يَكُنَّ من أمهات المؤمنين، وقد عدل الرسول الأمين ﷺ بينهن

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

في العطاء، وقسم لكل واحدة منهن ليلة.. وظلت سودة رضي الله عنها الزوجة الأولي بعد خديجة ـ رضي الله عنها ـ على العهد بها، راضية مطمئنة، لم يظهر عليها الضيق أو التبرُّم، لأن الذي يهمها هو إرضاء رسول الله ﷺ ورضاه عنها، وكانت عواطفها نبيلة، فأفسحت مكانها، وتنازلت عن ليلتها بطيب نفس منها للسيدة عائشة رضي الله عنها، وعاشت في بيت النبوة تسعد بالقرب، وتَحظي بالعَطْف، بقولها: «والله ما بي على الأزواج مِنْ حرصٍ ولكنِّي أُحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجةً للرسول ﷺ».

وذلك هو الشعور الطيب، والمَثَل العالي، حتى إذا حَجَّ الرسولُ ﷺ حَجَّةَ الوداع حجَّت معه واعتمرت، وعاشت في بيت الطُّهْر والعافية، حتى انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلي وهو عنها راضٍ.

نهاية المطاف

ظلت سيدتنا السيدة سودة رضي الله عنها قعيدة الدار، لم تبرح مكانها ولا بيتها بعد انتقال زوجها الكريم ﷺ للرفيق الأعلى، وهي تقول: «والله لا تحركني دابَّة بعد رسول الله ﷺ». وظلت محل احترام الجميع ورعاية ولاة الأمور، يزورها أهل العلم والفضل، ويتردد عليها أهل التقوي والصلاة، فتزوِّدهم بما تعرف، وتروي لهم ما رأته من أفعال رسول الله ﷺ، حتى انتقلت إلى ربها في آخر زمَنِ عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1]. ودفنت بالمدينة راضية عن حياتها، مرضية عنها من ربها، لأن الرسول ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلي وهو عنها راضٍ. وظلت أُمَّ المؤمنين عائشة تذكر لها صنيعها، وتؤثرها لجميل الوفاء فتقول: «ما مِنِ امرأة أحبُّ إليَّ من أن أكون في مِسْلاخها، من سودة بنت زمعة...»[2].

تلك نبذة قصيرة عن سيدتنا «سَوْدة» رضي الله عنها، فسلام عليها في الأولين

---

(١) وهذا على الأرجح.. ويذكر الواقدى أنها توفيت فى سنة ٥٤ من الهجرة فى خلافة معاوية.

(٢) انظر: نساء النبى للدكتورة عائشة بنت الشاطئ، ص ٧٣.

والآخرين، ورضوان الله على جميع أمهات المؤمنين، اللاَّئي قال الله فيهن: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾[1]

الصديقة بنت الصديق
عائشة بنت أبي بكر
(رضي الله عنهما)

لم يكن النبي ﷺ يفكر في الزواج في حياة السيدة خديجة رضي الله عنها زوجته الأولى، وأول مَنْ آمن به، وشدَّتْ من أَزْره، وشجَّعته على تلقي الدعوة. ولما توفيت في شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين حزن الرسول ﷺ لفقدها حزناً شديداً، وسمّي العام الذي توفيت فيه عام الحزن. وكان النبي ﷺ يتردد على بيت صاحبه الوفي وصديقه المخلص أبي بكر رضي الله عنه، وكان في حالة نفسية يسودها الحزن على وفاة خديجة، وكان يَرَي السيدة عائشة رضي الله عنها طفلة صغيرة، وكان يداعبها مداعبة الأب لابنته، ولم يكن يدور بخلده أنه سيتزوجها، حتى أقبلت عليه خولة بنت حكيم وقالت: يا رسول الله، كأني أراك قد دخلت عليك خلة لفقد خديجة! فأجاب: «**نعم، كانت ربة البيت، وأم العيال**». فاقترحت عليه أن يتزوج، واختارت له سَوْدَة بنت زَمْعَة، امرأةً لها تجربة سابقة في الزواج وتستطيع رعاية البيت، وأخرى بِكْراً وهي عائشة، بنت ألصق الناس به، وأحبهم إليه. فوافق النبي ﷺ على ذلك. وذهبت خولة إلى منزل الصِّدِّيق لتقوم بدور الخاطبة.

نسب السيدة عائشة

عائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لُؤَيَّ، من أفخاذ قريش، وكان أبو بكر يسمي عتيقاً لأن أُمَّه

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣١.

لم يكن يعيش لها أولادٌ، فنذرت إنْ عاش لها ابن تسميه «عتيقاً»، أي: الذي أُعتق من الموت. وقيل: سُمِّيَ عتيقاً لأن الرسول ﷺ قال له عندما أسلم: «**أنتَ عتيقٌ من النار**». وكان يُسَمَّي في الجاهلية «عبد الكعبة»، فسماه الرسول ﷺ «عبد اللَّه».

وقبيلة أبي بكر تتصف بالشجاعة والكرم والوفاء، والذود عن الكرامة. وكانوا يشتغلون بالتجارة. وعُرف أبو بكر قبل الإسلام بصِدْق الكلمة، وحُسن المعاملة، وقد احتل منزلة طيبة في نفوس العرب، لأنه كان سهلاً في معاملته، كريماً في خُلُقه، كما كان على علمٍ بأيام العرب، وكان أنسبَ قُريشٍ[1]، ولذا كان رجال قومه يأتونه ويألفونه لحُسْن مجالسته.

أمَّا أُمها: فهي «أم رومان» وكانت تسمي «زينب»، وكانت متزوجة قبل أبي بكر من عبد اللَّه بن الحارث صديق أبي بكر، وقد توفي عنها وتزوجها أبو بكر، فولدت له عبد الرحمٰن وعائشة. أسلمت أم رومان عندما دعاها زوجها أبو بكر إلى الإسلام وكانت صالحة تقية ذكية قال عنها رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان**». ولقد ذكرتُ ذلك ليكون القارئ الكريم على بَيِّنَة بأن البيئة التي نشأت فيها السيدة عائشة رضي الله عنها بيئة صالحة طيبة، كما أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال، يقول عنه الرسول ﷺ: «**ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه كبوة ونَظَر وتردّد، إلا ما كان من أبي بكر رضي الله عنه حينما ذكرتُه له ما تردَّدَ فيه**». كما أنه تحمَّلَ الكثير من أجل عطفه على المسلمين، وخاصة الضعفاء منهم، ولقد آثر البقاء بجوار الرسول ﷺ عندما هاجر المسلمون الأُوَلُ إلى الحبشة، وكان أنيسَ المصطفي في الغار، وفيه يقول الرسول ﷺ: «**ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مال أبي بكر**»، فبكي أبو بكر وقال: «يا رسول الله، هل أنا ومالي إلا لك»!.

مولدها

ولدت السيدة عائشة رضي الله عنها في السنة الخامسة من النبوة، وتربت في

(١) أى: أعْلَمُ قريش بالأنساب.

بني مخزوم على حسب العادة في الجزيرة العربية، فنشأت فصيحة اللسان، قوية البيان، تحفظ كثيراً من أشعار العرب، وقد أكسبتها حياة البادية كثيراً من صفات الشجاعة والمروءة والجرأة. وقد أسلمت هي وأختها أسماء وهما صغيرتان، وكان رسول الله ﷺ يوصي أُمَّها بها إذا ذهب إلى بيت صديقه قائلاً: «**يا أم رومان استَوْصِي بعائشة خيراً واحفظيني فيها**». وكان ذلك يُعلي شأنها في منزل أبيها. ولقد دخل مرة دار أبي بكر فوجد عائشة تبكي بكاءً شديداً وهي عند الباب مستترة، فسألها عن سبب بكائها، فشكت له، فدمعت عينا الرسول ﷺ ودخل على أم رومان وقال لها: «**يا أم رومان، ألم أُوصيك بعائشة أن تحفظيني فيها؟**» فقالت: «يا رسول الله، إنها بلَّغت الصديق عني وأغضبته علينا، فقال النبي ﷺ: «**وإن فَعَلَتْ**» قالت أم رومان: «لا جَرَمَ لا سَوَّءتها».

كانت عائشة قد خطبت لجبير بن مطعم بن عدي، ولم يكن قد أسلم، ولكنَّ أبا بكر بقي على عهده له، فلما جاءت خولة خاطبة لعائشة لم يشأ أبو بكر أن يعطي كلمة حتى ينظر في وعده، فتوجه إلى بيت المطعم بن عدي، فقالت أم جبير ـ وكانت مشركة ـ يا ابن أبي قحافة لعلنا إنْ زوَّجنا ابننا ابنتك تدعوه للدخول في دينك وتُصبئه. فالتفت أبو بكر إلى المطعم، فكأنه أَمَنَّ على كلام زوجته، فانصرف أبو بكر وهو يشعر بارتياح لتحلله من وعده، وذهب إلى منزله وقال لخولة: اذهبي فادْعِي رسول الله ﷺ.

رؤيا صادقة

المعروف من مجريات الأحداث أن علاقة الرسول بعائشة علاقة أب بابنته، ولم يفكر في الزواج بها حتى اقترحت عليه «خولة» ذلك. وعائشة برغم صغر سنها فيها ذكاء ونباهة، وكان الرسول يعجب بها، ويري فيها ما يلائم طبعه، وخاصة أنَّ أباها هو الصديق الكريم الذي أدَّبها فأحسن تأديبها. وقصد بهذا الزواج أن يكرم المسلم الأول، وأن تكون هناك علاقة النسب، ليتم الترابط والتراحم بين النبي الكريم وأبي بكر الصديق. وكانت هناك إرادة إلٰهية نتبين معناها فيما رُوِيَ عن

رسول الله ﷺ: «أن جبريل أتاه بصورتها في خِرْقَة من حرير خضراء قائلاً له: إنها زوجتك في الدنيا والآخرة». وكانت عائشة تُرَدِّدُ دائماً أن رسول الله ﷺ قال لها: **«أُرِيتُكِ في المنام مرتين، أرَي رجلاً يحملك في خِرْقة من حرير فيقول هذه امرأتك، فأكشفُ عنها فإذا هي أَنْتِ، فأقول: إنْ يَكُ هذا من الله يُمْضِهِ»**. كما أن جبريل قال له: «يا رسول الله، هذه تذهب بعض حُزنك، وإنَّ في هذه خلفاً عن خديجة».

وتمت الخطبة

عادت خولة لرسول الله ﷺ تدعوه ليذهب إلى بيت أبي بكر ليخطب عائشة التي كانت سنها سِتَّ سنوات، وكان ذلك جائزاً، خاصة أن السيدة عائشة كانت مخطوبة لجبير بن مطعم. وتمت الخطبة، ولم يُساوم أبو بكر بمهرِ ابنته، بل إنه اكتفي بالشرف الذي ناله بهذه المصاهرة الطيبة فخوراً راضياً مبتهجاً، وكان الصَّداق خمسمائة درهم. واستمرت الخطبة حتى هاجر الرسول ﷺ وبني بها بعد الهجرة بثمانية أشهر، وكانت تبلغ من العمر تسع سنين، وكانت هي الأولي والأخيرة التي تزوجها الرسول ﷺ بكراً. وكان يوم بناء الرسول ﷺ بعائشة بسيطاً هادئاً، ليس فيه من الشكايات شيء. وكان كل شيء ينطوي على الرضا والتفاهم والوئام، ولم يتوافر للعروسين من الطعام غير حفنة أرسل بها سعد بن عبادة وقدح من لبن.

أثاث المنزل

كان أثاث البيت الذي تم فيه بناء الرسول ﷺ بالسيدة عائشة غاية في البساطة، تقول السيدة عائشة: إنه لم يكن لديهما إلا فراش واحد: وسادة من أُدُم[1] محشوة ليفاً، وليس بينها وبين الأرض إلاَّ الحصير. ولقد دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ ذات مرَّة وذرفت عيناه الدُّمُوعَ حينما رأي الحصيرَ قد أَثَّر في جنب الرسول فقال: يا رسول الله، كسري وقيصر عَدُوَّا الله

(١) الأُدُم: الجلد.

يفرشان الديباج والحرير وأنت نبيه وصفِيُّه وليس بينك وبين الأرض إلا وسادة محشوة ليفاً فقال رسول الله ﷺ: «**أولئك عُجِّلَتْ لهم طيباتهم**». وكانت الحجرة مبنية من اللِّبْن ومسقفة بسعف النخيل.

ولقد كان باب هذه الحجرة يطل على المسجد. وبيتٌ هذا أثاثه وذلك بناؤه لم يكن طعام ساكنيه يختلف عنهما في بساطته. تقول السيدة عائشة: «إنه كان ليمر هلال وهلال وهلال، ثلاثة أهِلَّة، ولم يوقد في البيت نار». وتقول: «كان يأتي على آل محمد الشهر ما يختبزون خبزاً، ولا يطبخون قدراً». ولكن كان يعمُر هذا البيت ما يخلعه النبي على من فيه من بشاشة وإيناس، كان الوحي ينزل من السماء، وتُتلي آيات القرآن، وجبريل يظهر للمصطفي في هذا البيت المتواضع البناء، والشامخ بما يتردد في جنباته من آيات السماء.

وعاشت السيدة عائشة حياة الزوجية التي دامت حوالي تسع سنين وطوال هذه المدة تتمتع بحب النبي الكريم الذي أحلَّها منزلة تليق بصداقة أبيها وقُرب منزلته، وخلع عليها بعض الكنى، فكان يناديها بقوله: «**يا عائشُ**»، وأحياناً: «**أمّ عبد اللَّه**»، ومرة أخرى: «**بالشَّقْراء أو الحَمْراء**». وكانت تدعي «الصادقة» أو «الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق»، أو «حبيبة رسول الله»، أو «حبيبة حبيب الله»، وكل ذلك يدلنا على قُربها من قلب رسول الله ﷺ. وقد سأَلَ عمرو بن العاص الرسولَ ﷺ وقال له: مَنْ أحَبُّ الناس إليكَ؟ قال: «**عائشة**». قال: إنما أقول مِنَ الرجال؟ قال: «**أبوها**». لذا كان الرسول ﷺ يُشاركها اللعب إذا سمح وقته، وأحياناً يستتر بثوبه ويتركها تلعب بالبنات «عرائس تصنع من العهن». ولم يُرِدْ الرسول ﷺ أن يحرمها منظراً تصبو إليه نفسها حين كانت معه تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في يوم العيد. لقد كان الرسول ﷺ حريصاً على راحتها، إذا دخل عليها وهي نائمة خرج بهدوء. وكانت شخصية أبي بكر تتجلي في عائشة أمام الرسول، فكان يحبها لذاتها ولصلتها بأبي بكر، وكان يحبها حبًّا ممزوجاً بالثقة، وكانت هي تحاول خَلْقَ جوٍّ مرحٍ ترتاح فيه نفسية الرسول لتزيل عنه متاعب الحياة.

العالِمَة الرَّاوِيَة، والفقيهة المحدِّثة

لقد كانت السيدة عائشة فقيهة عالمة أديبة لبيبة ذكية، تُعَدُّ من أئمة الحديث، فقد بلغ ما روته من حديث (٢٢١٠) أحاديث، كما أنها كانت فقيهة تُسْأل في كثير من الأشياء التي تتعلق بالفرائض، كما أنها كانت فصيحة اللسان، قوية الحجة، تعبر عن أفكارها بأسلوب متين، وكثيراً ما كانت تتمثل بالشعر الجيد، ولها علم ودراسة بأخبار العرب الماضية وأنسابهم، وكان لها إلمام بعلم الفلك والطب، ولا غرابة في ذلك، فهي مَنْ هي حسباً ونسباً. يقول عنها عطاء بن أبي رباح: «كانت أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة». وقال عروة: «ما رأيت أحداً أعلم بفقهٍ ولا بشعرٍ ولا بطبٍّ من عائشة». كما أنها كانت تقوم بتوجيه النصح للنساء، وقد تحملت مسؤوليتها كاملة كأم للمؤمنين وزوجة نبي قائد يهدي للحق ويوجِّه للخير، وكثيراً ما تدخلت لفض النزاع بين المتخاصمين، وكانت تسأل عن أخص خصائص المرأة فتعطي الفتوي بما يتفق وتعاليم الدين. وهكذا نجد تغلغل السيدة عائشة في جميع نواحي الحياة العامة التي تتطلب مساهمة إيجابية من زوجة المصلح الكريم.

إشاعة كاذبة

ولما كانت هذه مكانة السيدة عائشة ومنزلتها في بيت الرسول وفي المجتمع أراد ضعاف الإيمان من المنافقين أن ينالوا من مكانتها ويحطموا شخصيتها، فأشاعوا عنها كذباً وافتراءً «حديث الإفك»، واتهموها بصفوان بن المُعَطّل السلمي رضي الله عنه. وذلك عندما خرجت السيدة عائشة مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المُصْطَلِق، وشاءت إرادة الله تعالى أن يتحرك الرَّكْبُ قبل الفجر والسيدة عائشة تقضي حاجتها، فلما عادت لم تجد الركب فبقيت وحدها وسط الصحراء حتى جاء الصحابي الجليل «صفوان» وكان بمؤخرة الجيش، فاحتملها على بعيره دون أن ينظر إليها، وكانت ملفوفة في سَوادٍ، وسألها عن سبب تخلُّفها، فما كلَّمته، فَقَرَّبَ البعير وتأخَّر عنه وقال: «اركبي يرحمك الله». ووصلت المدينة في وَضَح النهار،

فأشاع المنافقون «حديثَ الإفك» لينالوا من شخصيتها، وليعملوا قدر جهدهم على خَلْق جوٍّ يفسد على الداعي دعوته لينفضَّ من حوله الجميع، وينالوا بذلك مأربهم، والذي تَوَلَّى ذلك وأشاعه هو عبد اللَّه بن أُبَيٍّ بن سَلُول، الذي امتلأ قلبه بالحقد والكراهية للنبي الكريم، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾[1].

وكان حديث الإفك سحابة مليئة بالغيوم في حياة السيدة عائشة وزوجها ﷺ، ولم تلبث أن انقشعت بوحيٍ من الله، ونزل في ذلك آيات بيِّنات تظهر براءة أم المؤمنين مِمَّا تَقَوَّلَ عليها المتقوِّلون، وهي التي اتصفت طوال حياتها بالطُّهْر والعفاف، ولذا تقول لها «أم رومان»: «أَي: بُنَيَّة، خَفِّفِي عليكِ الشأن، فوالله لقلَّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كَثَّرْنَ وكَثَّر الناس عليها». ولقد كانت السيدة عائشة أيام حديث الإفك مريضة في منزل والدها، فلما نزلت آيات السماء تعلن عفافها ونقاء حياتها، وتبعد عنها ما تكلَّم به أهل الإفك والبهتان، عادت إلى بيت الرسول ﷺ تحفُّ بها آيات النور، واحتلت مكانتها الأولي في بيت الرسول ﷺ الذي يقول: «**لا تُؤْذُوني في عائشة**».

وعاشت عائشة تشهد أمجاد الرسول الذي يؤسس أُمَّةً على العدل والتقوى، وهو يغزو وينتصر لينشر نور الله في الأرض، حتى حانت اللحظات الأخيرة من حياة البطل المنتصر، فاستأذنَ نِساءَهُ أنْ يُمَرَّضَ في بيت عائشة، التي سهرت عليه تُمرضه وترعاه، وكانت تود لو تفتديه بالروح ليحيا بين أُمَّتِه مصدر خير ومهبط للبركات، حتى قُبِضَ رسولُ الله ﷺ في بيتها وحجرها، وبين سَحْرِها[2] ونحرها. ودُفن ﷺ حيث قُبِضَ، وتولي أبوها الخلافة من بعده بتوجيه النبي الكريم، وكان لأبيها من الشخصية الفذة ما حالَ بينها وبين التدخل في الشؤون السياسية، وكذا في عهد عمر بن الخطاب، حتى تولي عثمان بن عفان الخلافة، وهو الذي تَحْمِلُ له الاحترام والتقدير، لأنه تزوج بابنتي رسول الله ﷺ، وبعد سنتين من خلافته كان قد قَرَّبَ الأمويين وقَدَّمَهم على غيرهم، وأهمل غير الأمويين، مِمَّا سَبَّبَ خروج الناس

---

(١) سورة النور، الآية ١١.

(٢) السَّحْر: كل ما تعلَّق بالحلقوم من قلب ورئة.

عليه، وتأججت ثورة ضده، وزَحَفَ على المدينة بعضُ الثائرين من البصرة والكوفة ومصر، وقُتِلَ عثمان، فخاضت السيدة عائشة غمار الحياة السياسية، وحضرت بعض المواقع الحربية، وكان يشد من أزرها طلحة والزبير.

وفاتها

كانت السيدة عائشة رضي الله عنها ذات شرف ونسب، وضَّاءة الجبين، معتدلة القوام، تتصف بالاحتشام والوقار، وكانت ترغب في لبس الطريف، وتوجِّه النصح للنساء للعناية بأنفسهن.

وكانت رضي الله عنها تقية ورعة، تصلي وتصوم وتحج وتعتمر، وتُحسن إلى الفقراء، وتترفع عن شهوات الدنيا، ولقد رُوي أنها تصدقت بسبعين ألف درهم في يوم واحدٍ، وشاءت إرادة الله أن ينتابها مرض في آخر أيامها، وزارها أكابر الصحابة، ومن بينهم ابن عباس رضي الله عنهما، الذي دَخَلَ عليها معزِيًّا إياها بحب الرسول لها، وبنزول آية التيمم بسببها، وسورة النور التي برَّأتها من فوق سبع سمٰوات، ولكنها ما لبثت أن توفيت ولها من العمر ستة وستون عاماً، وكانت وفاتها يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٨ هـ، وصلي عليها أبو هريرة رضي الله عنه في البقيع ليلاً، ولقد اشتد حزن الناس عليها، لأنها كانت مرشدة كريمة، موجِّهة أمينة، وناصحة فاضلة، وزوجة لأحب خَلْقِ الله. وبموتها طُوِيَتْ صفحة زاخرة مليئة بالحوادث، تتحدث عنها الأجيال، ويستوحي من حياتها معاني الاعتزاز بالنفس. رضي الله عنكِ يا أم المؤمنين، وسلامٌ عليكِ في الأولَّين والآخرين.

حفصة بنت عمر بن الخطاب

مرت الأيام بالمسلمين وهم يعيشون في المدينة حول نبيِّهم الكريم، وقد كَلَّل الله مساعيهم بالنصر في غزوة بدر الكبرى، ونصرهم على أعدائهم ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾[1]. وكان المسلمون وهم يلتفُّون حول نبيهم ويتلقون منه ما يتنزل

(١) سورة الأنفال، الآية ٨.

عليه من تعاليم السماء تغمرهم السعادة، ويسعون في الأرض بجَلْب الرزق، ورفع راية السلام. وبينما الحياةُ تمشي بهذا النسق العجيب استيقظ الناس ذات صباح على صوت الناعي ينعي مسلماً كريماً من أبطال المسلمين، هاجَرَ الهجرتين: هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين، ثم هاجر إلى المدينة، وشهد مع رسول الله ﷺ بدراً دفاعاً عن عقيدته إنه «خُنيس بن حذافة السهمي» زوج السيدة حفصة بنت عمر، التي دخلت التاريخ بعد ذلك الحادث وأصبحت من أمهات المؤمنين، ولها في الإسلام منزلة وذِكْر، حيث يقول الله سبحانه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[1]. فمن هي حفصة؟

نسبها

أبوها هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العُزَّى، وينتسب إلى لؤيّ، وهو قرشي كريم، وعربي أصيل، وفارس مغوار، له في التاريخ ذكر كريم، حيث تولي الخلافة بعد أبي بكر، وسادَ العَدْلُ في أيامه، وأَمِنَتِ الرعِيَّة، واطمأنَّ الفرد إلى حقه، وهو الذي أسس دولة الإسلام ورفع راية القرآن، وكان الرسول ﷺ يدعو الله في بدء الدعوة أن يعز الإسلام بأحد العمرين، فكان عمر رضي الله عنه دعوة رسول الله ﷺ، وبه أعزّ الله الإسلام.

أمَّا أُمُّها فهي زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب، وهي عربية أصيلة، وأمها أخت عثمان بن مظعون، وهو من السابقين الأوائل في الإسلام.

مولدها

وُلدت رضي الله عنها وقريش تبني البيت الحرام ـ بمكة ـ قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين، ونشأت وترعرعت في هذا الجو الذي أراد الله تبارك وتعالى فيه الهداية للإنسانية، ولقد اهتم بها أبوها فرعاها حق الرعاية، وعاشت عزيزة كريمة

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦.

في بيته، يوجِّهها الوجهة الصحيحة، ويربِّيها على مكارم الأخلاق، خاصة أن الإسلام قد غَيَّرَ طباع العرب الذين كانوا يتألمون بمولد البنات، فغيَّر الإسلام النظرة إلى المرأة وأعطاها حق الحياة العزيزة وكَرَّمَها، نزل في ذلك القرآن يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾(١).

ومن هنا عاشت حفصة وهي تري أباها في بدء الإسلام وهو يعاديه ويصد عنه، ثم إذا به فجأة يتغيَّر حاله ويعلن إسلامه، ويغير من اتجاهه، وبذلك يتغير وضع المسلمين الاجتماعي، ويُكَبِّرُونَ تكبيراً من فرحهم بإسلام عمر تهتز له أركان مكة. ومنذ إسلامه أَلْقَي الرعب في قلوب المشركين، وحَمَي المسلمين من الأذي والظلم، ووقف يُدافع بقوته وشجاعته، لأنه كان صادقاً في إسلامه، عظيماً في تفكيره، ولذا اتخذه الرسول إلى جانب أبي بكر مرافقاً ووزيراً. ودخلت سيدتنا السيدة حفصة الإسلام، وهاجرت لتكون قريبة من أبيها، وعلي مرأي من مهبط الوحي، حيث تتنزل آيات السماء ندية جلية، تبيِّن للناس أَمْرَ دينهم، وتربطهم بخالق الكون العظيم.

زواجها

لقد كان يسرُّ عمر بن الخطاب أن يري ابنته زوجةً سعيدة في بيتها، ليؤمِّن بذلك حياتها، ولتهنأ دنياها، ولتكون تحت رجل يرعي أمرها، ويدبر شأنها، وتلك سُنَّة الله في خَلْقه، لتنتظم الإنسانية، ولتسير الحياة في مَجْراها المُحَدَّد لها في القدر السابق في علم الله. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ﴾(٢).

وقد كان «خنيس بن حذافة السهميّ» من أوائل المسلمين الذين دخلوا الإسلامَ في أول أيامه، وذلك عندما بَشَّرَ به الرسولُ ودعا إليه، قبل دخوله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، التي تُعَدُّ بحق المدرسة الأولى التي خَرَّجَتِ الأبطالَ، وقادةَ

(١) سورة النحل، الآية ٩٧.
(٢) سورة النساء، الآية ١.

الفكر، وهُداةَ الإنسانيةِ. ونال «خنيس» من الأذى ما نال أي مسلم دخل في الإسلام، واحتمل وصبر ابتغاء مرضاة الله، وهاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية، ورضي عمر بن الخطاب بهذا المسلم الكريم زوجاً لابنته، لأن الإنسان عندما يتخير لابنته يتخير لها الكفء من الرجال، ثم رجع «خنيس» من هجرة الحبشة وهاجر إلى المدينة مع المسلمين المهاجرين، وعاش «خنيس» بجوار زوجته الوفية البارَّة، التقية النقية، يرعي أمرها حتى انتقل إلى ربه، بعد أن شهد بدراً ورأى انتصار المسلمين أصحاب العقيدة الثابتة على الكافرين المشركين، وقد انتقل إلى ربه بعد الهجرة بخمسة وعشرين شهراً، وصلَّي عليه النبي ﷺ ودفنه بالبقيع إلى جانب قبر عثمان بن مظعون، وهو خال حفصة، والذي كان يعزه، لأن الإسلام جمع بينهما وقد التقيا على مرضاة الله وطاعته[1]. وما إن دُفِن «خنيس بن حذافة» زوج حفصة حتى حزن «عمر بن الخطاب» حزناً شديداً، لأن حفصة ما تزال في ريعان الشباب، حيث إنها لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها. وبدأ الترمُّل يغتال شبابها، ويمتص حيويتها، ويخنق صباها، فرأي عمر بن الخطاب بعد تفكير طويل أن يختار لها زوجاً كريماً تأنس لصحبته، بعد أن ضاعت في الحِداد على زوجها ستة أشهر أو تزيد.

العَرْض

في الوقت الذي توفي فيه زوج حفصة كانت رُقَيَّة بنت رسول الله ﷺ هي الأخرى قد انتقلت إلى جوار ربها، وتركت من ورائها عثمان بن عفان الزوج الكريم، والصحابي الجليل.

فرأي عمر بثاقب فكره أن يعرض ابنته على عثمان، وهو من المشهود لهم بالخُلُق الكريم، والمعاشرة الطيبة، فذهب عمر وعرض ابنته على عثمان ـ الذي كان حزيناً على زوجته ـ ولكنه لم يُجِبْه بما يُحقق أمنية عمر، لأنه كان حزيناً على زوجته، وكان يتمني الزواج من أختها أم كلثوم لينال بذلك الشرف الرفيع

(١) انظر: «طبقات ابن سعد»، ج ٣، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

والمصاهرة الكريمة للنبي العظيم. وبدأ عمر يستعرض في ذهنه الكثير من شباب المهاجرين والأنصار ليتخير من بينهم شخصاً فيه كفاءة حتى يزوِّجه ابنته، ووقف أمام صاحبه أبي بكر، وذَهَبَ عمرُ يعرضها عليه، ولكنَّ أبا بكر سكت ولم يردّ، فآلمَ ذلك عمر، وذهب إلى الرسول ﷺ يشكو له من صاحبيه ـ عثمان وأبي بكر ـ لأنهما لم يحققا رغبته، وهنا يبتسم الرسول ﷺ ويقول لعمر: «**يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة**». وتأخذ المفاجأة بعمر، وتشرق في خاطره لمحة مضيئة، فمن هو خير من عثمان؟ إنه نبي الأمة وهاديها الذي يجد الإنسان بجواره الراحة، وفي رؤيته الهدوء إنه رسول الله ﷺ. وخرج عمر مسرعاً فلقيه أبو بكر ولمح عليه أسارير الفرح والابتهاج، فمد يده إليه مصافحاً مهنئاً وهو يعتذر في لطف ويقول: «لا تَجِدْ عليَّ[1] يا عمر، فإن رسول الله ﷺ ذَكَرَ حفصةَ، فلم أكن لأُفْشِي سِرَّ رسول الله ﷺ، لو تركها لتزوجتها».

الزواج الكريم

كان البيت النبوي يضم بين جنباته السيدة «سَوْدَة» والسيدة «عائشة» رضي الله عنهما، وكانت الحياة تمشي بهما رتيبة هادئة ولقد علمت المدينة بخبر هذه المصاهرة التي قصد منها توثيق الصداقة وتتويج الأخوَّة، وزيادة الرعاية لعمر بن الخطاب، كما حدث ذلك من قبل لأبي بكر الصِّدِّيق عندما تزوج الرسول بعائشة، وباركت المدينة هذا الزواج، وأصبحت سيدتنا السيدة حفصة الزوجة الثالثة لسيدنا رسول الله ﷺ بعد «سودة بنت زمعة» و«عائشة بنت أبي بكر»، ولقد أسعدَ هذا عمر بن الخطاب، ولم يعد صاحبَ رسول الله ﷺ فحسب، بل أصبح صاحبه وصهره، وعَلاَ بهذا قدره في المجتمع الإسلامي، وانتقلت حفصة إلى بيت الرسول ﷺ، وكانت تتمتع بحظ كبير من الجمال والذكاء، وهي على جانب كبير من التقوي والورع، وأخذت تشهد بنفسها عن قرب مجريات الأمور في البيت النبوي، وتلحظ البطل الكريم وهو يتحمل في صبر وجَلَد مشقة الدعوة، ويجادل

(١) لا تجدْ عليَّ: لا تغضب مني.

قومه بالتي هي أحسن، ويجهز الجيوش لتغزو في سبيل الله، وتلحظ آثار الانتصار الذي يعود به القائد الملهم من غزواته.

ولقد وفد بعد ذلك على البيت النبوي نساءٌ أُخريات اقتضت الحكمة أن يَدْخُلْنَ البيت النبوي، وكانت هي بحُكْم وضعها الاجتماعي قريبة من قلب السيدة عائشة، فتعاطفتا وتصادقتا، وظهرت بينهما مَوَدَّةٌ وأُخُوَّةٌ، وكان عمر يسرُّه ذلك ويُعجبه أن تكون ابنته على صفاء مع السيدة عائشة، وهي الحبيبة إلى قلب رسول الله ﷺ، والقريبة منه قرب منزلة أبيها من الرسول عليه الصلاة والسلام. وكان زواج الرسول ﷺ بها سنة ثلاث من الهجرة.

المظاهرة

كان رسول الله ﷺ يخرج من غزوة ويدخل أخرى وهو ينتصر، ويُساق إليه الخير، وتُجْبَى إليه الأموال، فظن نساء النبي ﷺ أن الدنيا أصبحت تحت يديه، وأنه في استطاعته أن يُغَيِّرَ من وضعهن ويأتي لهن بالحرير والديباج، والذهب والفضة، ويبني لهن القصور، ولذا رُحْنَ يتحدثن في ذلك، ويتصورن أن المستقبل سيكون مشرقاً لهن من ناحية الملبس والمسكن، ونظراً لقرب حفصة وعائشة راحتا تتحدثان مع بقية أمهات المؤمنين وتسألانهن أن يتجمعن في صفٍّ واحد يسألنه النفقة والإغداق عليهن بلا حساب، وذهبت أمهات المؤمنين إلى النبي الكريم وتكلمن، وأصغي طويلاً لمطالبهن، ثم سكت، وهنا دخل أبو بكر وعمر وأخذتهما دهشة لما رأيا مطالبة نساء النبي ﷺ بالنفقة، وخاصة أن حفصة وعائشة هما المحرِّضتان على ذلك، وقد أغلظ كُلٌّ منهما لابنته القول وبعد أيام شاع في المدينة أن رسول الله ﷺ طَلَّق نساءه، وبدأ نوع من الذعر يقض مضاجع المسلمين، لأنه لو حدث هذا ستكون سابقة خطيرة في الحياة الإسلامية ربما تؤدي بالمجتمع إلى الانهيار، ولذا خرج عمر مسرعاً إلى بيت ابنته، وفعل ذلك أبو بكر هو الآخر، وكل منهما يردد: ما يعبأ الله بنا بعد اليوم.

وأسرع عمر إلى رسول الله ﷺ فوجده قد اعتزل نساءه، وهناك نوع من الكآبة

يخيم على البيت النبوي، وأمهات المؤمنين في حالة بكاء، ولَمَّا دخل عمر على رسول الله ﷺ قال له: «**يا عمر، إنَّ لنا الآخرة والذين يتنعمون لهم الدنيا**». ولقد اعتزل الرسول ﷺ نساءه شهراً، وفي الشهر نَزَلَ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[1].

وما إنْ نزل هذا التعبير الإلٰهي حتى تراجعت حفصة، وكذا عائشة، واستغفرت أمهات المؤمنين، ورضي الكل بالله ورسوله، وعاد الصفاء إلى البيت النبوي، وسارت الأمور في مسارها الطبيعي.

عودة إلى الحِلِّ

أرسل المقوقس إلى رسول الله ﷺ طبيباً وجارية ردًّا على الرسالة التي بعث بها الرسول عليه الصلاة والسلام، فَرَدَّ الطبيبَ وقَبِلَ الجارية، وهي «مارية القبطية»، التي رفعها إلى مصافّ أُمِّ ولده بعد أن أنجبت ابنه إبراهيم. وكانت له حليلة بمِلْكِ اليمين، وقد جاء في كتاب السّمط الثمين: أن حفصة خرجت من بيتها فبعث رسول الله ﷺ إلى جاريته فجاءت في بيت حفصة رضي الله عنها، فدخلت عليه حفصة وهي معه في بيتها، فقالت: يا رسول الله، في بيتي وفي يومي وعلي فراشي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**اسكُتي، فَلَكِ الله عليَّ لا أقربها أبداً، ولا تذكريه**». فذهبت حفصة فأخبرت عائشة رضي الله عنها، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾[2].

ثم وَضَّحَ الحقُّ سبحانه نبأ هذه القصة فقال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ يعني حفصة ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي أخبرت عائشة ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ

(١) سورة الأحزاب، الآيتان ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) سورة التحريم، الآيتان ١ ـ ٢.

وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ يعني حفصة، لما أخبره الله، قالت حفصة: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ قال: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾[1] إلى آخر ما ورد في سياق هذه القصة التي خرجت من الحيز الخاص برسول الله ﷺ، فلم يعد له وحده تَحِلَّة أيمانه بل صار رخصة للمسلمين جميعاً. وقد أُشيع في المدينة أن الرسول طَلَّق حفصة، وذهب عمر مسرعاً ينتابه نوع من الفزع إلى بيت ابنته ويسألها في إشفاق: هل طَلَّقَكِ رسول الله ﷺ؟ ولم تستطع أن ترد بجوابٍ، وكانت تبكي، وذهب عمر إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إن طلَّقت نساءك فإنَّ الله معكَ وجبريل وصالح المؤمنين. ونزل قول الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾[2].

وقد رُوي أن عمر بن الخطاب حَثَى على رأسه التراب عندما بلغه هذا الخبر، وقد نزل جبريل وقال للنبى ﷺ: الله يأمرك أن تُراجع حفصة بنت عمر رحمة لعمر. وفي رواية أخرى: راجِعْ حفصةَ فإنها صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ، وإنها زوجتك في الجنة. وقد راجَعَها الرسول وعاشت معه.

نهاية سعيدة

عاشت السيدة حفصة وهي تشهد أمجاد المسلمين، ورأت بعينها الرسول ﷺ وروحه تصعد إلى الرفيق الأعلى، وأصبح أبو بكر هو الخليفة من بعده. وقامت حرب طاحنة تسمي بحرب الرِّدَّة، وقُتِلَ فيها كثير من حَفَظَةِ القرآن، وأشار عمر على أبي بكر بجمع القرآن، لأنه كان في الصدور محفوظاً، وخوفاً من قَتْل القرَّاء فلا بد من جمعه. واقتنع أبو بكر برأي عمر، وجمع العديدَ من الحَفَظَةِ، وعهد إلى زيد بن ثابت كاتب الوحي بجمع القرآن ومراجعته مع الحَفَظَة، وتمَّ ذلك. وجُمِعَ في مصحف واحد وأُودِعَ في بيته طيلة خلافته، فلما انتقل إلى ربه وتولي عمر الخلافة انتقل المصحف إليه، فقام بدوره وأودعه عند أم المؤمنين حفصة. وعاشت

(١) سورة التحريم، الآية ٣.
(٢) سورة التحريم، الآية ٥.

أم المؤمنين حفصة تري نجم المسلمين يعلو وشمسهم تشرق بقيادة أبيها الذي كانت نهايته غدراً بيد «أبي لؤلؤة» المجوسي، وانتقل إلى ربه، وبكت حفصة أباها كما بكت من قبل على زوجها الحبيب، وكانت رقعة العالم الإسلامي قد اتسعت، وامتد العمران، وعظم شأن المسلمين، وتعددت اللهجات، واختلطت الألسنة، فرأي عثمان بن عفان الخليفة أن ينسخ من المصحف الموجود عند حفصة مصاحف تُوَزَّعُ على الأقطار، وبقي المصحف في حيازة حفصة، حتى إذا تشعبت الأمور وظهرت بوادر الفتن في الأفق لَزِمَتْ أم المؤمنين حفصة بيتها، وعكفت على عبادة ربها وهي محل ثقة الجميع.

ولقد شهدت أم المؤمنين حفصة خلافةَ معاوية، حتى إذا كان عام ٤٥ في شهر شعبان لقيت ربها وهي ابنة ستين سنة، وصلَّي عليها أبو هريرة رضي الله عنه، ونزل في قبرها عبد اللَّه وعاصم ابنا عمر.. وهكذا طُوِيَتْ صفحةٌ طيبة طاهرة نقية، والتقت مع زوجها الكريم وأبيها العظيم في مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مليكٍ مُقْتَدِر. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[1].

سلامٌ عليكِ يا أم المؤمنين في الأولين والآخرين.

هند بنت أبي أمية

«أم سلمة المخزومية» رضي الله عنها

لقد كان رسول الله ﷺ من أَوْفَى الناس لأصحابه في حياتهم وبعد مماتهم، فقد كان يتفقدهم، يسأل عن غائبهم، ويعود مريضهم، ويشيِّع من مات منهم إلى مثواه الأخير، ويزورهم في قبورهم يترحَّم عليهم ويستغفر الله لهم. كما كان يسأل عن أولادهم ويعطف عليهم، ويعطيهم من قلبه الكبير ما يجعلهم يشعرون بالدفء

(١) سورة النساء، الآية ٦٩.

والأمن، وكَأَنَّ أباهم بينهم وأكثر. وشمائل الرسول ﷺ في ذلك كثيرة.

وأمام أعيننا صورة لهذا الوفاء النادر الوجود الذي تحلَّي به نبي الله عليه أفضل الصلاة والسلام، ذلكم هو زواجه ﷺ من هند بنت أبي أمية رضي الله عنها.

اسمها ونسبها

اسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية القرشية، وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك الكنانية، من بني فراس، وأبوها من رجال قريش المعدودين. وكان مشهوراً بالكرم، كان إذا سافر معه صُحْبَة أو جماعة يكفيهم المؤونة، ولذا لُقِّبَ بـ «زاد الراكب». فهي من سلالة طيبة ذات مجد كريم.

زواجها الأول

تزوجت هند من عبد اللَّه بن عبد الأسد المخزومي، وعاشت معه عيشة طيبة ظللتهما، حتى إذا بَشَّرَ الرسول بالدين الجديد ودعا إلى الإسلام الحنيف، كان عبد اللَّه المخزومي من السابقين إلى الإسلام، المؤمنين بما بَلَّغَ سيدنا محمد الأمين.

إلى الحبشة

اعتنق عبد اللَّه الإسلام عن يقين وإيمان، ودعا زوجته هند بنت زاد الراكب فأسلمت وآمنت، وصدَّقت بكلمات ربها وحفظتها، وامتدت يد المشركين بالإيذاء إلى عبد اللَّه وزوجته، فاحتملا وصبرا واحتسبا عند الله الكبير المتعال. ومضت الأيام والإيذاء يزداد يوماً بعد يوم، حتى أَذِنَ الرسول لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، لأن المسلمين في إمكانهم أن يعيشوا بجوار ملكها في أمن على عقيدتهم. وعلي أرض الحبشة وُلِدَ لهما أولُ مولود، وسُمِّيَ «سَلَمة»، ومن هذا التاريخ لُقِّبَتْ هند بأُمِّ سَلَمة، كما لُقِّبَ زوجها بأبي سَلَمة.

وفي تلك الأثناء وصلت إشاعة كاذبة بأن قريشاً أسلمت، ولما عاد

المهاجرون وجدوا أن قريشاً ما زالت على الكُفْر والعناد، وقد دخل كُلُّ مهاجرٍ في جوار أحدَ رجالِ قريش، ودخل أبو سلمة وزوجته في جوار أبي طالب بن عبد المطلب، فهو ابن عمة رسول الله ﷺ من جهة وأخوه في الرضاعة من جهة أخرى.

حادث أليم

عاشت سيدتنا هند «أم سلمة» في مكة بعد العودة من الحبشة، وهي تري الرسول يربي أصحابه وينمِّي فيهم الإحساس بالمسؤولية تجاه الإنسانية الحائرة، ويعلِّمهم الدين، ويغرس في نفوسهم التضحية في سبيل المبدأ والعقيدة، والدفاع عن الوطن. وتلحظ الرسولَ في غُدُوِّهِ ورَواحِهِ، وتَنْعَم عيناها برؤيته معلِّماً وهادياً وبشيراً رحيماً، حتى أُمِرَ بالهجرة للمدينة، وأَذِنَ لأصحابه بالهجرة، واستعد أبو سلمة للهجرة، وقد أعدَّ لذلك راحلة ليأخذ معه زوجته المؤمنة الوفية أُمَّ سَلَمة وابنهما الطفل الوليد «سَلَمة». وعند مشارف مكة لحق به بعضُ بني المغيرة «أهل أُمِّ سلمة» وقالوا له: هذه نفسُكَ غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه، عَلاَمَ نتركك تسير بها في البلاد؟ ثم أخذوها ورَدُّوها معهم ومعها وليدها الصغير، فَغَضِبَ من هذا الصنيع بنو عبد الأسد «أهل زوجها»، فأرادوا أَخْذَ الطفل، وكان بينهما تجاذُبٌ أَدَّي إلى خَلْعِ يد الطفل الصغير، ثم أخذَ الولدَ أهلُ زوجها، وظلت هي مع أهلها بعيدة عن زوجها وولدها.

ومضت الأيام وهي في سيرها بطيئة، والحزن يعتصر قلبها، والهمّ يزحف عليها، حتى رآها أحد أبناء عمومتها ورأي ما بها، فَرَقَّ لحالها، وأخذ يشفع لها عند أهلها أن يتركوها لتذهب إلى زوجها، وأخيراً أَذِنُوا لها أن تهاجر، وعند ذلك ردَّ بنو عبد الأسد ولدَها إليها، وجهَّزت نفسها، وأعدت راحلة لتهاجر عليها، وكانت وحيدةً لأن الكل قد هاجَرَ وليس بمكة أحد، وخرجت حتى إذا كانت بالتنعيم ـ علي بعد فرسخين من مكة ـ لقيها عثمان بن طلحة ـ وكان ما زال على الشرك ـ وسألها: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ فقالت: أريد أن ألحق بزوجي في المدينة. فقال: أَمَعَكِ أحد؟ فقالت: معي الله. فانطلق معها عثمان بن طلحة يأخذ

بخطام بعيرها. وكان أميناً شهماً كريماً، عاملها بالإحسان والرفق حتى وصلت إلى زوجها راضية مرضية. تأمَّلْ عناية الله حيث يسخِّر لها هذا الإنسان الذي ما زال على الشرك يقود بعيرها ويحرسها، ولحقت الزوجة الوفية بزوجها بعد فراق دام ما يقرب من سنة، بكت كثيراً، وحزنت حزناً عظيماً، ولكنْ ﴿مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾[1].

والتأَمَ شَمْلُ الأسرة من جديد، وبدأت السعادة تعرف طريقها إلى الزوجين الوفيين، وكانت الثمرة المباركة إنجاب ثلاثة أطفال غير «سَلَمة» الذي وُلِدَ في الحبشة، وهم: عمر، ورقية، وزينب.

البطل

تحركت قريش لجَمْع الأحزاب والتحالف مع اليهود سرًّا وجهراً لملاحقة الإسلام ومناهضته، والصَّدِّ عنه، وإعلان الحرب عليه، فكان لا بد من رَدِّ فعلٍ من قِبَلِ المسلمين بوقف هؤلاء الذين ملكهم الغرور عند حدٍّ معيَّن، ولذا فرض الله الجهاد على المسلمين فقال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[2]. ولذا كان الرسول ﷺ يخوض مع أصحابه الحرب ضد هؤلاء المعتدين، ومن خير الأبطال الذين وقفوا معه عبد اللَّه المخزومي «أبو سلمة»، فكان في غزوة «بدر» له جولات مشرِّفة، وكذلك في غزوة «أُحُد»، وأُصيب بجرح عميق، وقد استعمله الرسول ﷺ قبل ذلك على المدينة، وأَمَّرَهُ ـ عليه السلام ـ على سرية توجهت لبني أسد، وكان تحت إِمْرَتِه سعدُ بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح، مما يدل على مكانته عند القائد العام للدولة الإسلامية نبي الإسلام.

ورجع البطلُ من هذه السرية وهو مُتَوَّجٌ بالنصر، إلا أن جُرحه قد عاوَدَهُ ولَزِمَ بيته، وزاره النبي العظيم وهو على فراش الموت، حتى إذا دنت الساعة الأخيرة

---

(١) سورة يوسف، الآية ٩٠.

(٢) سورة الحج، الآيتان ٣٩ ـ ٤٠.

كان الرسول بجانبه يدعو له بالخير، وأسبل بيده الكريمة عينيه، ثم صَلَّي عليه وكَبَّرَ تسع تكبيرات، فقيل له: يا رسول الله، لقد كَبَّرْتَ تسعاً. أسهوت أم نسيت؟ فقال: «**لم أَسْهُ ولم أنسَ، ولو كَبَّرْتُ على أبي سَلَمة ألفاً كان أهلاً لذلك**». وهذا يدل على عُلُوِّ قدره وعظيم منزلته. والتفت الرسول إلى أُمِّ سلمة وقال لها: «**سَلِي الله أن يُؤْجِرَكَ في مصيبتك ويخلفك خيراً**».

الخطبة

ما إن انتهت أيام الحداد على الزوج الكريم حتى تقدم شيخ الصحابة «أبو بكر الصديق» إلى أم سلمة يخطبها ليحفظ ودّ أخيه في الإسلام ويرعي أولاده، ولكنها رفضت برفق ولين. ثم تقدم عمر بن الخطاب الشهم الكريم لخطبتها، فكان الجواب كالأول، ثم قالت: «وَمَنْ يكون خيراً من أبي سَلَمة؟» ثم أرسل الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يخطبها لنفسه، فوجدت أن هذا الشرف تتمناه أي امرأة في المجتمع، ولكنها فَكَّرَتْ وأرسلت تقول: يا رسول الله، إنني امرأة مُسِنَّةٌ وأُمُّ عيال وعندي غيرة. فأرسل الرسول عليه السلام يقول لها: «**أما أنك امرأة مُسنَّة فأنا أكبر منك، ولا يُعاب على المرء أن يقال تزوج من هي أَسَنُّ منه، وأما قولك إنك أُم عيال أيتام فإنهم كلهم على الله ورسوله، وأما قولك إنك شديدة الغيرة فإني أدعو الله أن يُذهب عنك غيرتك**». وتمت الخطبة، وتزوجها الرسول الكريم، وانتقلت لتأخذ مكانها في المجتمع الإنساني كأمٍّ للمؤمنين وكان مكانها في البيت النبوي الكريم في المكان اللائق بها كربَّة بيت ترعى شؤونه، وكأم للمؤمنين ترعى شؤونهم، وتعطف على ذي الحاجة منهم.

في بيت النبوة

انتقلت «أُمُّ سَلَمة» إلى بيت النبوة وأخذت مكانتها بين نساء النبي الكريم، وكانت برغم تقدُّم سنِّها تتمتع بقسط وافر من الجمال، مما جعل السيدة عائشة رضي الله عنها تقول: «لما تزوَّجَ الرسولُ ﷺ «أُمَّ سَلَمة» حزنتُ حزناً شديداً لما ذُكِرَ

لي من جمالها، فتلطفتُ حتى رأيتها، فرأيتُ والله أضعافَ ما وُصِفَتْ به». ولكنها لم تكن تدل بجمالها، بل هناك منزلةُ العِزِّ التي عاشتَتْ فيها وورثتها عن أجدادها، ثم فوق ذلك سابقتها للإسلام، وهجرتها، وتحمُّلها المشاق والصعاب في سبيل العقيدة والمبدأ، وهي زوجة رجل أعطى حياته للإسلام، وأم أيتام تركهم أبوهم أمانة ووديعة بين يدي المسلمين ونبيهم الكريم، والوحي لم ينزل في أي بيت من نساء النبي إلاَّ السيدة عائشة رضي الله عنها تُباهِي بذلك، حتى إذا جاءت «أُمُّ سَلَمة» وانضمت إلى الرَّكْب الطاهر نَزَلَ الوحي في بيتها، ورُتِّلت آيات السماء في حجرتها ندية مضيئة. كما أنها صحبت الرسول ﷺ إلى مكة في العام السادس الهجري (عام الحديبية)، وكان لها دور كبير في المشورة على النبي عندما أراد المسلمون تغيير العهد الذي أُبرم بين النبي وأهل مكة، وحدثت هناك تساؤلات: لِمَ نُعْطِ الدَّنِيَّة في ديننا؟ وأصبح الجو ينذر بالخطر، حتى إن الرسول أمر أصحابه أن ينحروا ويحلقوا، فما قام منهم أحد، فأشارتْ عليه «أُمُّ سَلَمة» برأي هو الصواب، فقالت: اخرجْ ولا تُكَلِّمْ منهم أحداً فتنحر وتدعو حالقك يحلق لك وفعل النبي ذلك، فتبعه المسلمون.

وكانت في صحبة النبي في فتح مكة وفي بعض الغزوات الأخرى، وعاشت وهي تري نصر الله يتحقق للبطل الكريم الذي كان مَثَلُهُ كمثل الشمس، كل شخص يتمتع بها، ويظن أنه وحده الذي يتمتع بالدفء. حتى إذا انتقل الرسول ﷺ إلى ربه راضياً مرضيًّا، بعد أن بَلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، لزمت سيدتنا أم سلمة بيتها لم تبرحه، وتجنبت الخوض في معترك الحياة العامة، حتى انتقلت إلى ربها راضية مرضية سنة ٥٩ هـ، ولها من العمر أربعة وثمانون عاماً، وصلي عليها أبو هريرة رضي الله عنها، ودُفِنَتْ بالبقيع.

رملة بنت أبي سفيان
«أم حبيبة» رضي الله عنها

إن الله جلَّت قُدرته أَيَّدَ رسوله الكريم بنصرٍ عظيم على أعدائه الذين تآمروا عليه ووقفوا في سبيل دعوته يصدون الناس عنها، ويشيعون حوله ما نطقت به ألسنتهم من كذب وافتراء على رجل اصطفاه الله واختاره لحمل الرسالة وهداية البشر، وكان يعامل الصديق كما يعامل العدو في حال الدعوة والتوجيه، وإذا ما سَمِع الأذي من عدوه رفع يديه إلى السماء وقال: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فإنهم لا يعلمون**». ومع أنه كان رجل دعوة فقد كان له عقل الساسة الكبار والمصلحين العظام الذين ألقت عليهم الأقدار مسؤولية القيام بهداية البشر، والأخذ بأيديهم حتى يتبوَّأوا مكان الصدارة والسعادة في المجتمع.

هذا النبي الكريم لم ينسَ أصحابه، القريب منهم والبعيد، لأن مثله في المجتمع كمثل الهواء الطيب الذي تنتعش به النفوس، وتهدأ به القلوب، ويستردُّ به الجسد صحته وعافيته. وعندما بدأ يُبَشِّر بدعوته وأسلم له قومٌ شَرَحَ الله صدورهم للإسلام أُوذوا من قومهم، وتحمَّلُوا في صبر وجَلَد عذابهم واضطهادهم، وكان من بين هؤلاء الشابة المليحة الوضيئة «رملة بنت أبي سفيان» التي تحمَّلَتْ في سكون عذاب قومها وسخرية أهلها، وبذاءة السفهاء منهم. ونحن إذْ نقدِّمها اليوم ونلقي على سيرتها ضوءاً ليكون نبراساً طيباً لأمهاتنا وأخواتنا، ويتعرفن على ما تصنعه العقيدة من قوة وثبات.

اسمها ونسبها

هي السيدة رملة بنت أبي سفيان بن صخر بن حرب القرشية الأموية، وأمها صفية بنت أبي العاص عمة عثمان بن مظعون، ومن المعروف تاريخيًّا أن أبا سفيان كان عدوًّا لدوداً لرسول الله ﷺ، فهو المحرِّض على الموقعة الحربية التي وقعت بين المسلمين والمشركين في «بدر»، ثم هو الذي قاد المشركين في «أُحُد» لينتقم

من المسلمين، وتوعدهم مقسماً باللاَّتِ والعُزَّي ليحاربن المسلمين في العام القادم. وخرج على رأس الأحزاب مجتمعة لقتال المسلمين، وما زال على عدائه لرسول الله ﷺ حتى فتح الله مكة على المسلمين، وقد أسلم في اللحظة الأخيرة خوفاً من الانهزام.

إسلامها وإيمانها

أسلمت رملة رضي الله عنها مع السابقين إلى الإسلام، وكانت متزوجة من عبيد اللَّه بن جحش الأسدي الذي أسلم معها وهاجرا معاً إلى الحبشة، ووضعت هناك بنتاً أسمتها «حبيبة»، فأصبحت تُعْرَفُ منذ ذلك التاريخ «بأُمِّ حبيبة». وقد عاشت في الغربة بعيدة عن وطنها وأهلها التي كانت تشتاق إليهم، ولكن الذي كان يؤنسها في غربتها رباطها الروحي العظيم برسول الله وبمن معه من المؤمنين الذين بقوا في مكة.

وكانت تعلم من أخبار قومها أن أباها من الزعماء المعاندين لدعوة رسول الله ﷺ، وكان يتوعدها حيث خرجت من طَوْعِه وأسلمت بدون أمره، وهاجرت بدون علمه. وبينما هي في مهجرها رأت رؤيا كَدَّرَتْ عليها حياتها وجعلتها تعيش مضطربة النفس، قلقة الخاطر، حتى تحققت رؤياها، فزادها ذلك نكداً على نكد. وكان هذا الحُلْم: أنها رأت زوجها في صورة سيئة، وبعد ذلك تَنَصَّرَ وارتدَّ عن الإسلام، وكم حاول أن يأخذها معه ليردها عن دينها، ولكنها صبرت وتضرعت إلى الله أن يعصمها ويحفظ عليها دينها الذي هو أغلي من كل شيء. ولقد عاشت بعد فترة لا يعلم إلا الله كم تحمَّلت فيها من مرارة فراق زوجها الذي ترك لها بنتاً في عمر الزهور وهي غريبة عن الأهل والوطن، مما جعلها تشعر بالخزي مما فعله زوجها الذي بدَّل دينه فهو لم يبقَ على دين قومه عَبَدة الأوثان والأصنام ولكنه آمن بالدين الجديد، ثم تنكَّر لكل هذا ودخل في دينٍ آخر، مثله كمثل إنسان يستبدل ثوباً بثوب، ليس له على هذا صبر ولا على ذاك جَلَد. ولقد كانت تنظر إلى ابنتها فيمزق الأسي قلبها وتقول في نفسها: ما ذنب هذه الطفلة البريئة التي أصبحت تعي

ما يدور حولها وقد رأت أن أباها وأمها كُلاً منهما في وادٍ لا يجتمعان، وهما في غُربة لا يعلم إلا الله مداها، فلاذتْ بالإيمان، واعتصمت بربها: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[1].

منحة بعد محنة

الصبر ضياء، ومَنْ صَبَرَ امتثالاً لأمر الله عوَّضه الله خيراً كثيراً، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[2]. لقد صبرت رملة رضي الله عنها صبر الأبطال، وجاهدت نفسها وهواها حتى لا تنزلق في تيار الارتداد، لقد شهدتها نجومٌ الليل ساهرة تُلقي نظرة حنانٍ على طفلتها، وتدعو ربَّها أن يكون لها عوناً ونصيراً ومؤيداً، فأيَّدها ربها، وإذا هي ذات صباح تفتح بابها بعد أن استيقظت على من يناديها في منامها بقوله: «يا أم المؤمنين». فصاحت في نفسها: كيف؟ أرسول الله يتزوجني؟ وإذا هي بِطَرْق على الباب الذي ظل كثيراً لا يُفتح لأحد غيرها بعد أن ابتعد عنها الذي كان يطرق عليها ومات في غُربته، وقد جاءتها تلك الطرقات بعد أن انتهت عُدَّتُها من زوجها المرتَدّ، ولقد كان الطارق عليها رسولٌ من قِبَلِ النجاشيّ، امرأة تسمي «أبرهة»، جاءت تقول لها: يقول لك الملك إن رسول الله كتب في أمر زواجك منه، فصاحت «أم حبيبة» في فرح: بَشَّرَكِ الله خيراً!! ويقول لكِ الملك أيضاً وَكِّلِي مَنْ يُزَوِّجَكِ. ولقد أخذَتْها نشوةُ الفرحِ، واستعادت ماضيها الطويل، وأخذت تقول في نفسها: أنا بنت أبي سفيان العدُوُّ اللدود لرسول الله. أنا زوجة الهالك المرتد، أنا الغريبةُ الوطن البعيدة المنزل أكون زوجة لنبي الهدى؟

أشرق الإيمان في نفسها، وظهر السرور على وجهها، فنزعت سوارين من معصمها وقدَّمتهما إلى «أبرهة» تُحْفَة البشري والنبأ السعيد والمنزلة الخالدة التي تتطلع إليها عيون الكثيرات من النساء. وإذا كان الصبر مفتاح الفرج، وبعد العُسْر يأتي اليسر، وبعد ظلام الليل يأتي نور الصباح الذي تسير الإنسانية في هُداه، فإن

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠١.
(٢) سورة الزمر، الآية ١٠.

التي عاشت قلقة النفس، مضطربة الفكر، بعيدة الأهل، غريبة الوطن، قد أتي إليها الفرج العظيم بنبأ زواجها من نبي الإسلام.

حفل زواجها

أرسلت رملة إلى خالد بن سعيد بن العاص، وكان من المؤمنين المهاجرين، فوكَّلته في زواجها. وبعد العشاء دعا النجاشيُّ جعفرَ بن أبي طالب وجميع المسلمين، ثم تكلَّم النجاشيُّ فقالَ: «أما بعد، فإن محمداً رسول الله كتب إليَّ أن أُزَوِّجَهُ أُمَّ حبيبة، رملة بنت أبي سفيان، فأجبتُ إلى ما دعا إليه الرسول، وأصْدَقْتُها عنه أربعمائة دينار». وسكب الدنانير بين يدي القوم، وعندئذ نهض وكيلها «خالد» فقال: «الحمد لله، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدي ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أما بعد: فقد أجبتُ إلى ما دعا رسول الله ﷺ وزَوَّجْتُهُ من رَمْلَةَ بنت أبي سفيان، فبارك الله رسولَ الله»، ثم قبض الدنانير. وأراد القوم أن ينصرفوا فقال لهم النجاش: «اجلسوا فسُنَّةُ الأنبياء إذا تزوجوا أن يُقدموا الطعامَ لمن حضروا الزواج». ثم دعا بطعامٍ، فأكلوا ثم تفرَّقوا.

باتت أم المؤمنين هادئةَ النفس، قريرة العين، وفي صباح اليوم التالي جاءتها «أبرهة» تحمل إليها هدايا نساء الملك من كل ما تحفل به بلاد الحبشة، فقالت لها «رملة»: يا أبرهة، كنتُ أعطيتك السِّوارَيْن بالأمس وليس بيدي شيء من المال. تَأَمَّلْ: ليس عندها مال، ولكن عندها حسن الظن بالله والثقة به، وقد جاءني الله عز وجل بهذه الهدايا. ودفعتْ إليها خمسين ديناراً. ولكن «أبرهة» ردَّت الدنانير والسوارين وقالت: يا سيدتي، إن النجاشيَّ أجزل ليَ العطاءَ وأَمَرني ألاَّ آخُذَ منكِ شيئاً. وهذا مَثَلٌ لو أَنَّ نساءنا تعلَّمْنَ منه لكان لهن نور وضياء في حياتهن.

مواقف من حياتها

المتتبع للأحداث الماضية يري أن زواج النبي ﷺ من «رملة» ليس وراءه

غرض من أغراض الدنيا، ولكنه زواج إنساني المنزع، كريم العواطف، فرضته ظروف تلك السيدة المسلمة المهاجرة التي صبرت وتمسكت بدينها، ثم هو زواج سياسي القصد، من ورائه تليين تلك العواطف الجامحة عند أبي سفيان ومن معه، ثم إنه زواج يربط بين قلوبٍ تنافرت، ويؤلف بين أفئدة تباعدت، فهو ليس زواجاً يُقْصَدُ به متعة أو لذة كما تقول بعض الألسنة الحاسدة الناقمة التي لا تعرف تلك العواطف الكريمة التي طُبِعَ عليها نبي الإسلام، أما أبو سفيان الزعيم الثائر على دعوة الإسلام فعندما عَلِمَ بهذا الزواج قال: «هذا الفَحْلُ لا يُجْدَعُ أنفه»! وهذا مَدْحٌ لرسول الله ﷺمن عدو، والفضل ما شَهِدَتْ به الأعداء.

وسارت الأيام في مجراها، وعادت أم حبيبة إلى المدينة لتحتل مكانها في بيت النبوة، وقد كان يؤلمها أن أباها ما يزال على الوثنية يؤلِّب المشركين، وبين الحين والحين تدور رُحَي المعارك، ويسقط قتلي من شيعة أبيها، وشهداء من صحابة زوجها ﷺ. وتطورت الأحداث، ونقضت قريش صلح الحُدَيْبِيَّة، ولاحتْ نُذُر الخَطَر تهدد زعماء مكة الذين اجتمعوا يتشاورون، واستقر رأيهم على إيفاد رسولٍ منهم إلى المدينة ليفاوض محمداً في تجديد الهدنة ومَدِّ أجلها عشر سنين، واختاروا أبا سفيان لهذه المهمة، لأن له بنتاً تحت رسول الله. وفُوجئت أم المؤمنين بأبيها يدخل بيتها، ولم تكن قد رأته منذ هجرتها إلى الحبشة، وأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ، فطوته عنه، فسألها: أَطَوَيْتِهِ يا بُنَيَّةُ رغبةً بي عنه أم رغبة بالفراش عني؟ فقالت له: هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك فلا أحب أن تجلس عليه. ورد أبو سفيان: لقد أصابَكِ بعدي شر.

ووقفت «رملة» تتفكر في تلك الأحداث الطوال وهي معطلة الحواس، عصية الدمع لكل ما مرَّ بها من أحداث، إنها تلك المرأة التقية النقية التي لم تأذن لأبيها بالجلوس على فراش زوجها ونبيِّها، زادها الله تكريماً، وأنزل في زواجها من رسول الله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾[1]. لقد التزمت طوال حياتها بتوجيهات رسول الله، فعندما جاءها نعي أبيها دَعَتْ بطيبٍ فمسحت ذراعيها

(١) سورة الممتحنة، الآية ٧.

وقالت: ما لي من حاجة لولا أني سمعتُ رسول الله يقول: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحد على ميت فوق ثلاث إلاَّ على زوج أربعة أشهرٍ وعشراً**». كما أنها كانت تصلي كل يوم اثنتي عشرة ركعة وتقول: سمعت رسول الله يقول: «**من صلَّي اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة بُني له بيت في الجنة**». قالت «أُم حبيبة»: «فما تركتهن مُذْ سمعتُ ذلك من رسول الله ﷺ».

عاشت «أم حبيبة» حتى رأت نبي الإسلام يدخل مكة، ويدخل أبوها في دين الله، فسجدت لله شاكرة، وعاشت متعبِّدةً خَيِّرَةً، صالحة تقية، حتى توفيت سنة ٤٤ هـ في خلافة معاوية، ودُفنت بالبقيع مع أمهات المؤمنين، رضوان الله عليهم أجمعين.

أم المؤمنين زينب بنت جحش
رضي الله عنها

لم يقف المستشرقون طويلاً أمام زوجة من زوجات نبيِّنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم مثلما وقفوا أمام هذه الشخصية الكريمة النبيلة الأصيلة ذات الشرف والحسب «زينب بنت جحش» رضي الله عنها، التي تزوَّجها الرسول ﷺ، وكان زواجها سبباً في تقرير مبدأ جديد غير ما كان معروفاً قبل ذلك بين العرب أجمعين. فمن المعروف عند العرب أن للأدعياء حقوقاً كالأبناء في النَّسَبِ والميراث، فلا يجوز التزوج بنسائهم، ومن هنا اتخذ المستشرقون هذا الزواج ذريعة ليتشدَّقوا ويظهروا خصومتهم للإسلام، ويفتروا على التاريخ، وسوف نتبين افتراءاتهم وكذبهم على نبي الإسلام ﷺ.

اسمها ونسبها

هي السيدة زينب بنت جحش بن رئاب الهاشمية القرشية وأمها أُميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي. فهي بنت عمة رسول الله ﷺ، أسلمت في بدء الإسلام، وهاجرت مع أهلها إلى المدينة، وكانت تكبر وتترعرع وبدا عليها

الجمال. وكانت تعتز بذلك وتفخر بنسبها الرفيع وتردِّد: أنا سيدة أبناء عبد شمس، وفوق هذا كانت تدل بقرابتها لرسول الله ﷺ، مما كان يزيد من مكانتها ورفعتها. وكانت ترقبها العيون، ويتمني كل شاب في المدينة أن ينال منزلة القرب من بيت النبوة ويتزوج تلك الهاشمية الجليلة القدر، العظيمة الشأن، وكان من شباب الإسلام وفتيانهم زيد بن حارثة رضي الله عنه.

زيد بن حارثة

زيد بن حارثة بن شراحبيل بن كعب، خرجت به أُمُّه «سُعْدَي بنت ثعلبة» لتزور أهلها فأغار عليها خيلٌ من بني القين وأخذوه أسيراً وباعوه في أسواق العرب، ووقع في يد خديجة بنت خويلد التي وهبته لرسول الله ﷺ قبل البعثة. وعاش معه ردحاً من الزمن، وكان يُلَقَّبُ زيد بن محمد بعد أن رفض العودة مع أبيه بعد التعرُّف عليه، ولمَّا دُعِيَ إلى الإسلام كان أولَ من أسلم بعد عليٍّ بن أبي طالب، وعاش في بيت النبوة قريباً من قلب الرسول، حتى كان يُطلق عليه حب رسول الله. ولمَّا جاء الإسلام بتعاليمه كان من مبادئه الأساسية: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[1]. ومن هنا لُقِّب زيد بن حارثة، نسبة إلى أبيه، وتطبيقاً لنظام الإسلام.

وبلغ زيدٌ مبلغَ الرجال وطلب من رسول الله ﷺ أن يخطب له، وفرحَ رسول الله فرحته الكبرى، إذْ طالما تمنَّي أن يكون لزيد مولاه بيت هادئ ينعم فيه بلذة القرب من زوجة وفيَّة، ويشعر فيه بالراحة والاستقرار، وطلب زيد أن تكون زوجته «زينب بنت جحش» التي أعلنت رفضها لهذا الأمر، لأنها من أسرة لها مكانتها الاجتماعية، وزيد من طبقة الموالي وقد جري العُرْفُ أن لكل طبقة أكْفَّاءها. وهنا نزل قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[2].

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

موافقة زينب

وتراجعت زينب عن موقفها وخشيت أن تكون ممن ينطبق عليهن العصيان لله ورسوله، ورضيت بالزواج الذي كان ثورةً اجتماعية أعلنها الإسلام على النُّظُم التي كانت سائدة في البيئة العربية والتي كان من شأنها أن تقسم الناس إلى طبقات، وهناك حدود بين هذه الطبقات فاصلة لا يمكن تخطيها، فطبقة الموالي كانت دون السادة الأشراف بمراحل كثيرة، والعرب أنفسهم على طبقات تمثل قريش المرتبة الأولى، فكان زواج المولى بقرشية حَدَثاً ذا خطورةٍ كبيرةٍ أراد به الرسول أن يبيِّن أن الإسلام يرفع من شأن المولى ليضعه في طبقة الأشراف، بل ليبيِّن عمليًّا أنه ليس في الإسلام شريف أو وضيع، بل هم سواسية أمام الدين، وأنه لا فضل لعربيّ على عجميّ إلا بالتقوى، وأن الناس جميعاً خُلقوا من ذكرٍ وأنثى، فأصلهم واحدٌ، فلا تمايز بينهم بِحَسَبٍ أو نَسَبٍ، كما أنه من المعلوم أن زينب رضي الله عنها كانت ترجو أن تتزوج ممن يناسبها شرفاً ومقاماً، ولكن هذا الزواج كان وراءه حكمة تشريعية كبيرة.

في بيت واحد

ومرت الأيام، وعاش زيد وزينب في بيت واحد، وكان بينهما فرق، فزيدٌ رضي الله عنه من الموالي وزينب قرشية هاشمية، كبيرة النفس، عزيزة الجانب، كانت تنظر إلى زوجها وتتذكر حالها فلا تملك إلا أن ترفع وجهها إلى السماء تسأل الله العليّ القدير أن يجعل لها من هذا الجحيم الأرضيَّ مخرجاً. ومن المعلوم أن الزواج الذي لا يقوم على التكافؤ الاجتماعي والثقافي بين الزوجين يكون مبنياً على الاضطراب ومآله إلى الانفكاك. مضت الأيامُ، وكان زيدٌ أَحَبَّ زوجته الحب كله، ولكنها كانت قاسية عليه، فبدأت الكراهية تتسرب إلى قلبه، ولم يعد يحتمل البقاء معها، وكان يذهب إلى رسول الله ﷺ يشكو له هَمَّهُ ويسأله الموافقة على طلاقها لسوء معاملتها له، ولكن الرسول ﷺ كان يقف دائماً موقف الناصح الأمين ويقول له: «**أَمْسِكْ عليكَ زوجَك واتقِّ الله، ولا تَقْدَمْ على ما أنت قادمٌ عليه**»، لأن الرسول

كان أحرص الناس على دوام العشرة بين الزوجين، إلا أنه كان هناك أمر إلٰهي يعلمه الله تعالى من الأزل، وهو تغيير مبدأ من المبادئ السائدة، وهو أن «ليس للمتبني حكم الابن في كل شيء».

أمر الله

وطُلِّقَتْ زينب عند استحالة العِشْرة بين الزوجين ليتم التشريع الجديد، تشريع السماء الذي تسعد به الإنسانية، وينزل أمر الله لرسوله الكريم أن يتزوج زينب رضي الله عنها، وضرب الرسول بهذا الزواج أسمي المثل في السنة الخامسة من الهجرة، وكان عمرها عند الزواج خمساً وثلاثين سنة، وكانت تفتخر بأن الله زوَّجها من فوق سبع سمٰوات، ودخل عليها الرسول ﷺ بغير إذن من أهلها، وسجدت لله شكراً، لأن الله أجاب دعوتها وطُلِّقت من زيد وجزاها خير الجزاء، وزَوَّجَها من رسوله الكريم.

والمتأمل في هذا الزواج يري أن الرسول ﷺ لو كان له رغبة في زينب لتزوَّجَها في أول الأمر بِكْراً، لأنها بنت عمته وليس بخافٍ عليه جمالها منذ صغرها، فقد كانت أمام عينيه يراها في غُدُوِّهِ ورواحه، ولكن الرسول كان يعاني في سبيل دعوته وبثّ رسالته، الأمر الذي جعله لا يفكر في أي امرأة ليتزوج بها لجمالها أو مالها أو حَسَبها، وإنما كان يضم إليه أرملة شهيد ذات أولاد يؤويهم ويضفي عليهم حنانه ورعايته، وتارة ليسنّ سُنَّة ويبيِّن حُكْم الله فيما جهل الناس فيه حكم الله، وكان القصد من وراء زواجه بزينب هو تغيير ما تعارف عليه العرب وإلغاء هذه العادة، وأن المتبنَّي ليس كابن الصلب، وهذا التشريع لا بد أن يبدأ به رسول الإسلام ليكون قدوة لأتباعه. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾[1].

لقد كان رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يخشي تقوُّل الناس عليه بأنه تزوج

(١) سورة الأحزاب، الآيتان ٣٧ ـ ٣٨.

من كانت زوجاً للذي تبنَّاه والذي أنعم الله عليه بالإيمان والإسلام، وهذا أَجَلُّ النِّعَم، وأنعمت عليه أنت يا محمد بالعِتْقِ وبإلحاقه بك.

أعداء الإسلام

نعم، لقد كان بين الزوجين تنافر فأراد الله لزيد أن يُطلِّق زوجته ليتزوجها الرسول ﷺ لكي لا يكون على المؤمنين حَرَجٌ فيما أحله الله لهم في أزواج أدعيائهم إذا قَضَوْا منهن وَطَراً، وكان أمر الله مفعولاً. وأمام هذه القصة يقف المستشرقون وأعداء الإسلام ليتقوَّلوا على النبي الكريم لأنه تزوج زوجة ابنه من التبني (فأي نبي هذا؟) ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾[1]. ويكفي لإسكاتهم إعجاز الله في كلماته الكريمة التي تحوي بلاغة الرد وعظمة الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حيث خاطبه المولى جل وعلا بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٣ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝٤﴾[2]. ويكفي هذا الرد لإسكات هؤلاء المرجفين فالنبوَّة الحقيقية صلة في النسب، والأدعياء تسميتهم عارضة، وإلصاقٌ بمن ليسوا لهم آباءً، وذلك لا يدل على النبوَّة الحقيقية، ولقد كان هذا الزواج خطوة للتشريع الجديد الذي أراده لنبيِّه ﷺ، واختار الحق نبيه الكريم ليقوم بالتطبيق العملي أمام المجتمع، لأنه هو القدوة للناس أجمعين.

في بيت النبوة

وعاشت السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها في بيت النبي الكريم، وكانت صوَّامة قوَّامة متصدِّقة، قال عنها الرسول ﷺ في حديثٍ لعمر بن الخطاب: **«إنَّ زينب بنت جحش أوَّاهة»**، فقال رجل: يا رسول الله، ما الأوَّاه؟ قال: **«الخاشع**

---

(١) سورة الكهف، الآية ٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآيات ١ ـ ٤.

المتضرِّع»، ثم تلا عليه الصَّلاة والسلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾[1]. وكانت كريمة خَيِّرة، تصنع بيديها ما تُحسن صُنْعَه ثم تتصدق به على المساكين، فكانت بذلك أُمًّا رحيمة، قال عنها الرسول ﷺ: «**أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً**». فكانت نساء النبي إذا اجتمعن في بيت واحدة بعد وفاة رسول الله ﷺ ـ كما تقول السيدة عائشة ـ نمد أيدينا في الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش ولم تكن بأطولنا، فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ إنما أراد طُولَ اليد بالصَّدَقَة. وكانت زينب امرأة صناعة اليدين، تدبغ وتخرز وتتصدق في سبيل الله. وقد انتقل الرسول ﷺ إلى ربه راضياً مرضيًّا، وكانت زينب أولَ نسائه لحاقاً به.

إلى جوار الله

توفيت سيدتنا زينب سنة ٢٠ من الهجرة، وصلي عليها عمر بن الخطاب، ودُفنت في البقيع، وكان عمرها عند وفاتها ثلاثاً وخمسين سنة، وعندما بلغ السيدة عائشة نعيها قالت: «ذهبتْ حميدةً متعبِّدةً مفزع اليتامى والأرامل». كما أن السيدة أُمّ سَلَمة ترحَّمْتَ عليها وذكرت ما كان يكون بينها وبين عائشة، ثم قالت: كانت زينب لرسول الله ﷺ معجبة وكانت امرأة صالحة صوّامة قوّامة صناعة اليدين، تصنع بيديها ما تُحسن صُنعه ثم تتصدَّق بذلك كله على المساكين. ويروي أن عمر بن الخطاب ـ وهو أمير المؤمنين ـ أرسل إليها عطاءها اثني عشر ألفاً، فجعلت تقول: اللهم لا يدركني هذا المال في قابل فإنه فتنة، ثم قَسمته في أهل رحمها وفي أهل الحاجة. وعندما حضرتها الوفاة قالت: إني قد أعددتُ كفني وإن عمر أمير المؤمنين سيبعث إليَّ بكفن فتصدقوا بأحدهما.

يا نساء المسلمين، هذه رائدة لكُنَّ في الخير فاقرأن سيرتها لتتعرفن على المُثُل الكريمة، والعمل الصالح الذي يرفع الله صاحبه إلى أعلي الدرجات، وليكن دعاؤنا جميعاً: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[2].

---

(١) سورة هود، الآية ٧٥.

(٢) سورة الحشر، الآية ١٠.

زينب بنت خزيمة

«أم المساكين» رضي الله عنها

من المعلوم أن النبي ﷺ بُعِثَ إلى الناس كافة، الرجال والنساء، وقد كان يجلس بين أصحابه يلقِّنهم التعاليم. ويُحفِّظهم القرآن، ويرشدهم إلى مكارم الأخلاق حتى تسمو نفوسهم فلتسعد بهم الدنيا... والنساء لهن جانب من التعليم والتوجيه، لأنه ﷺ عندما بُعِثَ كانت المرأة تُعَدُّ من سقط المتاع، فكرامتها مُهْدَرَة، ومكانتها ضائعة، فكانت تُباع عندهم وتُشْتَرَي كأنها سلعة، وقد انحطت كرامتها في دولتي الفُرس والروم، وكانوا يطلقون عليها كل لفظ قبيح، لأنها في نظرهم مثار الشر، وظلت المرأة كذلك حتى امتدت إليها يد بعض القبائل فوأدوها حية. واستمر هذا حال المرأة حتى بُعِثَ المصطفي صلوات الله وسلامه عليه الذي حرَّرها من هذا الظلم ورفع مكانتها، وأعلي من منزلتها، ونزل القرآن الكريم: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[1].

لهذا كان من الطبيعي أن تتعدد زوجات النبي ﷺ، لأنهن أقدر على تبليغ الأحكام الخاصة بالنساء، ولا يصلح للتلقي عن الرسول إلا مَنْ كانت على عصمته وتحت يده، وفوق ذلك فقد كان للقصد من وراء ذلك اجتذاب القبائل من وراء المصاهرة التي هي أقوي داعٍ للتآلف والمناصرة. كما أن من مات زوجها وليس لها عائل يرعاها أو رجل يذود عن حماها ضَمَّها الرسول إلى نسائه، ليستقر وضعه وتشعر بالعطف والحماية في بيت النبي الكريم، من أجل ذلك رأينا أنه ﷺ تزوج «زينب بنت خزيمة».

نسبها

هي زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد اللَّه بن عمرو بن عبد مناف بن

---

(١) سورة النحل، الآية ٩٧.

هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمي في الجاهلية بأم المساكين، لأنها كانت تعطف على الأرامل واليتامى، كما أنها كانت تمد المساعدة لكل محتاج، فهي عربية هلالية، عاشت في الجزيرة العربية، وكانت من السابقات إلى الإسلام، وكذا زوجها الأول عبد اللّه بن جحش ابن عمة الرسول ﷺ الذي استشهد في غزوة أُحُد، وأصبحت بعد فَقْدِهِ بلا عائل.

خطبتها

نظراً لقصر المدة التي عاشتها سيدتنا الكريمة في بيت النبوة فالمؤرخون اختلفوا وتضاربت أقوالهم في تاريخ هذه السيدة، ومَنِ الذي تولي أمر زواجها لرسول الله ﷺ. والذي يؤخذ به من جملة الأقوال أن الرسول ﷺ خطبها إلى نفسه فجعلت أمرها إليه، فتزَوَّجَها وأصدقها أربعمائة درهم، ودخل عليها بعد حفصة بنت عمر، وكان زواجه بها في شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة.

طيبتها

أجمع المؤرخون على تعدد مشاربهم واختلاف أقوالهم أنها كانت تقية صالحة، ورعة مؤمنة، لم تُذْكَر في أي كتاب إلا ويقرن اسمها بجملة: «أم المساكين»، وذلك لأنها كانت تطعم الفقراء وتتصدق على المساكين وتحسن إليهم، كما أنها كانت صَوَّامة قَوَّامة، وقد ذكر هيكل في كتابه «حياة محمد» أنها لم تكن ذات جمال، وإنما عرفت بطيبتها وإحسانها حتى لُقِّبت بأم المساكين، كما أنها كانت تعتق العبيد رأفة بهم ورحمة.

حياتها

عندما ضُمَّتْ زينب المخزومية إلى نساء النبي الكريم ونالت هذا الشرف العظيم الذي تصبو إليه النفوس وتتطلع إليه القلوب كانت هي الوافدة الرابعة بعد أم المؤمنين خديجة الكبرى، ولكن حياتها الزوجية لم تدم طويلاً، لأنها لم تمكث في

بيت النبوة إلا ثلاثة أشهر، وفي رواية أخرى ثمانية أشهر، وهي مدة بسيطة قليلة، ولذلك اختلف المؤرخون فيها ولم يستطيعوا أن يعطونا صورة واضحة لحياتها الاجتماعية، لأنها توفيت في حياة رسول الله ﷺ.

وفاتها

إن حياة الإنسان لا تُقاس بأيام عمره، ولكن تُقاس بما قَدَّم من عَمَل، وبما ترك من أثَر، فكم من أناس عاشوا مئات السنين وخرجوا من الدنيا ومُحِيَتْ آثارُهم ولم يُذكر اسمهم. وكم من أناس عاشوا قِلَّة من الزمن ومع ذلك فأيامهم حافلة بجلائل الأعمال، ينطق الزمن باسمهم، ويقف أمامهم إجلالاً وإكباراً. ومن الذين يقف الزمن أمام اسمهم أم المؤمنين سيدتنا زينب بنت خزيمة «أم المساكين»، التي انتقلت إلى ربها ولها من العمر ثلاثون عاماً، وقد صلي عليها الرسول ﷺ ودفنها بالبقيع، وقد نزل في حفرتها ليكون قبرها رحمة وفيه نور من أنوار المصطفي صلوات الله وسلامه عليه، ويكفيها فخراً أنها تُبعث يوم القيامة في عِداد أمهات المؤمنين أزواج النبي الكريم ﷺ، الذي بَلَّغَ رسالة ربه، ودعا الناس إلى دين الهدي والسعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة. وإنَّا ونحن نتحدث عنك يا أم المؤمنين، يا من كُنْتِ زوجةَ شهيدٍ ضَحَّي بدمه في سبيل العقيدة وصبرْتِ أنتِ من بعده، واحتسبتِ فعوضَّكِ الله خيراً، وأبدلك زوجاً خيراً من زوجك، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾[1].

فسلامٌ عليك ما تُليت آيات الله في الأرض، وما تردد اسم الله من فوق المآذن، وجزاكِ الله خيراً. وسلامٌ عليكِ يوم نلقاكِ أمام رب العزة وقد ضاعت الأحساب والأنساب ولم يبق يومها إلا حَسَب الإسلام ونَسَب الإيمان. إن هذه الزوجة الكريمة كانت الزوجة الثانية التي تُوفيت في حياة الرسول ﷺ، أما الأولي فهي السيدة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها وعن الجميع، وألحقنا بهم على خيرٍ في مقعد صِدْقٍ عند مليك مقتدر.

---

(١) سورة يوسف، الآية ٩٠.

جويرية بنت الحارث

إذا مدَّ الإنسانُ القويُّ يده إلى الضعيف لينهض بشخصه ويرفع من ضعفه ويسمو بقدره دون أن يمنَّ عليه فإن ذلك يعتبر من سُمُوّ الأخلاق ونُبُل الصفات، وهذا ما تحلي به نبيِّنا صلوات الله وسلامه عليه، فقد كان من خُلقه أن يعفو عمَّن ظلمه، ويصل مَنْ قَطَعَه، ويعطي من حَرَمه، ولقد كان من شمائله ما ذكره الله عز وجل وجعله منهاجاً له ولأمته: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

ولقد ضرب نبينا صلوات الله وسلامه عليه أمثلة رائعة في هذا السبيل أصبح مضرب الأمثال، ولقد كانت تلك الصفات مِمَّا جمعت حوله القلوب وألَّفت النفوس، وجعلت أعْدَي أعدائه أحب أحبائه. ولقد كان من منهجه في تعدد زوجاته أن يؤلف القلوب ويجمع حوله الناس ليدخلوا في دين الإسلام دين السماحة والعدل والحق. والمتأمل في زواجه صلوات الله وسلامه عليه من جويرية بنت الحارث يجد هذا المثل. لقد خاض النبي غمار حروب انتصر فيها وساد، وأصبحت كلمته في الجزيرة العربية يعدّ لها ألف حساب وحساب، ونحن نري من مجريات الأحداث التي مرَّت به صلوات الله وسلامه عليه أن المشركين عندما جمعوا جمعهم وحَزَّبُوا أحزابهم وساروا في جحافل من الجيوش نحو المدينة ليقصدوها بسوء في السنة الخامسة من الهجرة وأشار أحد أصحاب رسول الله ﷺ بحفر الخندق الذي سُميت الغزوة باسمه، ونري أن اليهود المجاورين للمدينة انقادوا للمشركين وساروا في رَكْبهم، ولكن الله القوي القادر الذي أرسل رسوله بالهدي ودين الحق كتب للإسلام النصر ولرسوله التأييد وانهزم الأحزاب، وبعد ذلك تفرغ الرسول لتأديب بني قريظة، وبعد ستة أشهر من هذه الأحداث كان النبي يراقب بحذر ما يجري في المحيط الذي حوله فشعر بحركة لم تبعث في نفسه الارتياح، لأن بني المصطلق أَعَدُّوا عدة لاغتياله صلوات الله وسلامه عليه، وعندئذ

---

(١) سورة فصلت، الآية ٣٤

جهَّز جيشه ونادَي مناديه بالجهاد، وتحرك الرَّكْب من المدينة حتى وصل قريباً من قبيلة خزاعة، ونزل عند مكان به ماء يسمي «المُرَيْسِيع» وحاصر بني المصطلق الذين سِيقَتْ نساؤهم سبايا، وكان من بين النساء «بَرَّةُ بنت الحارث بن أبي ضرار» التي أصبحت فيما بعد «أم المؤمنين جويرية بنت الحارث».

اسمها

هي برة بنت الحارث زعيم بني المصطلق وقائدهم، وكان هذا الرجل يكنُّ العداء الشديد لرسول الله ﷺ ولدعوته، وقد جمع الجموع ليحاربه ويقضي على الرسول، خاصة بعد أن هزم الأحزاب وانتصر الرسول على بني قريظة، ثم إن الرسول ﷺ انتصر بعد ذلك على بني المصطلق وسَبَي نساءهم، ووُزِّعت السبايا على الجند من أتباع النبي العظيم ﷺ ووقعت «بَرَّة» في سهم «ثابت بن قيس» الذي كاتَبَها على تسع أواق من الذهب تدفعها فدية عن نفسها. وقد ذهبت إلى القائد العظيم ﷺ تسأله أن يعينها بماله حتى تفك أسرها. لقد ذهبت إلى رسول الله ﷺ وهي تقول له: «أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، قد أصابني من البلاء ما قد عَلِمْتَ، فوقعتُ في السهم لثابتِ بن قيس، فكاتبتُه على نفسي، فجئتُكَ أستعينك على أمري».

وقد كانت تتكلَّم وفي صوتها نبرة أسى، لأنها بالأمس كانت عزيزة الجانب، لها مكانتها في قومها، لأنها بنت سيد الناس، العربي الحر، فأصبحت رقيقة. فنظر إليها الرسول الكريم صاحب الخُلُق العظيم، الذي من شمائله أن يرحم الضعيف والمسكين، ومن مبادئه: «**ارْحَمُوا عزيزَ قَوْمٍ ذَلَّ**»، وتكلم الكريم وقال: «**فهل لَكِ في خيرٍ من ذلك؟**»، وسألته في لهفة: وما هو يا رسول الله؟ قال لها: «**أقضي عنك كتابتك وأتزوجك**». وتهلَّل وجهها بالفرح، لأن مثلها مثل الغريق الذي وَجَدَ المنقذ لينقذه من الهلاك والغرق وأجابت: «نعم يا رسول الله». وردَّ عليها الشهم الأصيل النبي العربي ﷺ: «**قد فعلت**».

حياتها من قبل

لقد كانت هذه السيدة متزوجة من ابن عمٍّ لها يسمي «صفوان بن مالك» وقُتل عنها في يوم الأحزاب، وعندما وقعت أسيرة ـ وكانت مخايل الجمال تبدو على وجهها، لأن سنها لم يتجاوز العشرين ـ كانت تخشي على نفسها أن يصيبها الهوان والضياع للرقِّ الذي لَحِقَ بها، وأنها سَتُبَاع بعد ذلك في الأسواق. وما إنْ سمعت أذناها كلامَ الرسول صلوات الله وسلامه عليه حتى أشرق الأمل في قلبها، ورأت السعادة تلوح أمامها وأشرقت البسمة على وجهها، لأنها ستدخل التاريخ وستتبوأ مكاناً كريماً، ويُتلي في شأنها قول الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾[1].

حياتها في بيت النبوة

عندما عرض عليها الرسول ﷺ أن يقضي عنها كتابتها ويتزوجها وشاع الخبر في المدينة بأن الرسول ﷺ قد تزوج بنت الحارث سيد بني المصطلق أقبل جميعُ الصحابة على من بأيديهم من أَسْرَي قومها ففكوا إسارهم وأرسلوهم أحراراً، وكان كل واحد من الصحابة يقول: «أصهار رسول الله»، ومن هنا أصبحت هذه المرأة لها فَضْلٌ على قَوْمها، وأصابهم من وراء هذا الزواج بركة عظيمة. وعندما تزوجها الرسول غيَّر اسمها من «بَرَّة» إلى «جُوَيْرِيَّة»، لئلا يقال: خرج من عند «بَرَّة» ودخل إلى «بَرَّة». وهذا الزواج كان من ورائه خير عظيم فإن الحارث بن ضرار ما كان ليطمع في أن تنال ابنته هذا الشرف وأن تضم إلى نساء النبي العظيم، بل إنه جاء إلى المدينة وهو يحمل الفداء لابنته وقال: «يا محمد، أصبتم ابنتي وهذا فداؤها، فإن ابنتي لا يُسْبَي مثلها». فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: «**أرأيت أن أُخَيِّرَها، أليس قد أحسنت؟**» فأجاب: بلى. فأتاها أبوها فَذَكَرَ لها ذلك، فقالت: «اخترتُ الله والرسول».. لقد أَسْلَمَتْ وحَسُنَ إسلامُها، وعندما سمع أبوها منها ذلك صاح بأعلي صوته: «وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٢.

ولقد أصدقها الرسول أربعمائة درهم ولقد جمعت هذه الصلة بين المسلمين وبين بني عبد المصطلق جمعتهم في إطار واحد، وهذا النسب جعلهم ينسون سخافات الجاهلية، كما أنهم كانوا عبيداً أذِلَّة فأعتقهم النبي الكريم، وأصبحوا يتفاخرون بأن ابنتهم أصبحت زوجة لقائد المسلمين، وأصبح بنو المصطلق بهذه المصاهرة حُرَّاساً لدعوة الإسلام، أمناء على الإيمان، يدفعون زكاة أموالهم، ويساهمون في الدفاع عن الدولة العظيمة.

حادث أليم

حدث أن الرسول ﷺ أرسل إلى قومها الوليد بن عقبة ليأتي منهم بزكاة المال، فاجتمعوا وخرجوا في وفود هائلة احتفاءً بالقادم من قِبَلِ الصِّهْرِ الكريم، وما إن رأي الوليد جَمْعَهُم حتى كَرَّ عائداً إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي له أن بني المصطلق جمعوا جموعهم وهم يتحرشون بالإسلام وبمن يأتي من قِبَل نبي الإسلام. وثارت ثائرة المسلمين وطالبوا بقتالهم، ولكنَّ بني المصطلق أرسلوا إلى رسول الله ﷺ يقولون له: خرجنا نرحِّب برسولك القادم إلينا من قِبَلِك ولكنه خُيِّلَ إليه أننا ننوي شرًّا، ولكن يعلم الله ما أردنا برسولك إلا خيراً. وهنا نزل قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾[1]. ومن هنا يتبين لنا نظرة الرسول السياسية الصائبة بزواجه هذا الذي ضم إليه قبائل لها بطش شديد وأصبحت تري فيه سيدها.

حياتها ووفاتها

عاشت سيدتنا «جويرية» في بيت النبوة وقد حسن إسلامها، وتعبَّدت وزادت صلتها بالله وأصبحت ترى رسول الله ﷺ الأسوة والقدوة، وكانت طيبة كريمة، تُحسن إلى المحتاجين، وتتصدق على الفقراء. وبعد أن انتقل الرسول إلى الرفيق

(١) سورة الحجرات، الآية ٦.

الأعلي لم تَخُضْ غمار الحياة الاجتماعية وصارت قعيدة بيتها حتى توفيت في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما سنة ٥٦هـ ولها من العمر خمسٌ وستون عاماً، علماً بأن الرسول ﷺ تزوجها ولها من العمر عشرون عاماً، وصلَّي عليها مروان بن الحَكَم والي المدينة، وعُرفت في تاريخ الإسلام بأم المؤمنين التي لم تكن امرأة أعظم على قومها بركة منها رضي الله عنها وأرضاها، وألحقنا بها في مقاعد المتقين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أَتَي الله بقلب سليم.

صفية بنت حُيَيّ بن أخطب
رضي الله عنها

الوفاء من مكارم الأخلاق... ولقد كان رسول الله ﷺ في أعلي درجات الكمال من الأخلاق، مَدَحَهُ ربه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[1]. وقد كان من طبعه صلوات الله وسلامه عليه أن يمد يد الإحسان إلى من أَخْنَي عليهم الزمن، أو تغيرت بهم الأحوال، وكان هذا شأنه صلوات الله وسلامه عليه في السلم والحرب، ومن هنا رأيناه يمد يده بالمعروف إلى امرأة تَبَدَّلَ حالها من عز الحرية إلى ذُلّ الأَسْر، إذْ وقعت أسيرة بعد أن قُتِلَ أبوها وزوجُها في معركة خيبر التي دارت رحاها بين المسلمين واليهود في شهر المحرم من السنة السابعة للهجرة، وقد أراد الرسول بذلك أن يؤدِّب اليهود اللئام الذين كشفت وقعة الخندق عَمَّا يطوون عليه من حقد مرير، وما يبيتون للإسلام من شر، ولقد دُكَّتْ حُصون خيبر، وقُتِلَ رجالها، وسُبِيَ نساؤها، وكان من بين السبايا «صفية» رضي الله عنها التي أصبحت «أُمَّ المؤمنين» فيما بعد.

اسمها ونسبها

هي السيدة صفية بنت حُيَي بن أخطب اليهودي، وأمها بَرَّة بنت سَمَوْأَل من

(١) سورة القلم، الآية ٤.

بني قُرَيْظَة، ويرجع نسبها إلى سيدنا موسى عليه السلام، لأنه كما ورد في كتاب «السمط الثمين» أن رسول الله ﷺ دخل عليها وهي تبكي، فقال لها: «**ما يبكيك؟**»، قالت: إن حفصة بنت عمر قالت إني ابنة يهودي. فقال النبي ﷺ: «**إنك لابنة نبي وإن عمك لنبي وإنكِ لتحتَ نبي ففيمَ تفخر عليك؟**»، وفي رواية أخرى قال لها: «**قولي: زوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى، صلوات الله وسلامه عليهم**»، فيؤخذ من هذا أن نسبها يتصل بسيدنا هارون وسيدنا موسى عليهما السلام.

رؤيا صادقة

عاشت هذه السيدة بين يهود بني النضير، وكان الحقد على الإسلام يتأصل في قلوبهم، مع أنهم يعرفون أن الرسالة التي نزلت على النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه هي الرسالة الخاتمة، ويعلمون أنه صادق فيما يبلِّغ عن الله الذي يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾[1]. وقد تزوجت وهي صغيرة السن من شاعر قومها «سلام بن مشكم»، ثم خلف عليها «كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق»، وهو شاعر أيضاً، فقُتِلَ يوم خيبر.

وعندما كانت متزوجة بابن أبي الحقيق رأتْ كأن قمراً وَقَعَ في حجرها، فأخبرت زوجها بذلك ـ وكان من اليهود الممتلئة صدورهم بالحقد على نبي الإسلام ـ فعرف أن هذه الرؤيا يستدل منها على أنها ستكون زوجة لهذا النبي الذي يبغضه، فلطمها وقال: تتمنين مَلِك يثرب؟! وقد تركت هذه اللطمة أثراً في عينها سألها عنها الرسول عليه الصلاة والسلام بعد أن تزوجها، فقصَّت عليه هذه القصة التي يؤخذ منها أن الرؤيا تعبِّر أحياناً عن مستقبل الإنسان وعن الغيب المكنون في علم الله، وقد صدقت هذه الرؤيا، وكان القمر الذي وقع في حجرها هو رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء وصفوة خَلْق الله.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٤٦.

زواجها من الرسول ﷺ

تكاد الروايات تُجمع على أن سنها عندما تزوجها الرسول ﷺ كان سبع عشرة سنة، فهي كانت صغيرة، إلا أنها كانت على دراية كبيرة بالأمور الاجتماعية التي تجري في مجتمعها الذي كان يتآمر على الإسلام والمسلمين، ويكنّ البغض للقائد، ولكن عندما عاشت «صفية» بالقرب من المسلمين وضمها البيت النبوي الكريم رأت السماحة، والكَرَم، والحِلْم، والصفحَ، والإحسان، وكل مكارم الأخلاق تتمثل في شخصية النبي الحبيب الذي يُعَلِّم أتباعه تلك المبادئ.

عندما وقعت السيدة صفية في الأَسْر جاء «دحية» ـ أحد الصحابة ـ فقال: يا رسول الله، أَعْطِني جارية من السَّبْي. فقال: «**اذهبْ وخُذْ جارية**». وأخذ صفية بنت حيي. فجاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، أعطيت «دحية» صفية بنت حُيي سيدة قريظة والنضير، ما تصلح إلا لك لأنها كانت بنت أمير القوم، ومن أعقلهم، وأُصيبت في أعز أهلها. فأرسل الرسول ﷺ إلى «دحية» وقال له: «**خُذْ جارية من السبي غيرها**». ثم أعتقها الرسول عليه الصلاة والسلام بعد أن ضمها إليه وتزوجها. وقد عرف الصحابة ذلك عندما ألقي عليها رداءه.

وفي الطريق من خيبر إلى المدينة جاءت أُمُّ أنس بن مالك فمشطتها وجَمَّلَتْها، وبذلك ذهب أثر الحزن من نفسها على أبيها وزوجها، وأقيمت لها وليمة العُرْس، وأكل الناس من طيبات خيبر، ثم دخل الرسول ﷺ عليها بعد أن ضرب القبة التي وقف يحرسها أبو أيوب خالد بن زيد، وكان متوشحاً سيفه يطوف بالقبة على غير علمٍ من الرسول... فلما أصبح ووجده ساهراً يقظاً سأله: «**ما لك يا أبا أيوب؟**»، قال: يا رسول الله، خفتُ عليكَ من هذه المرأة لأن أباها قُتل وزوجها كذلك، وكثير من قومها، وهي حديثة عهد بكفر فخفت منها عليكَ! فدعا له الرسول ﷺ وقال: «**اللهم احفظ أبا أيوب كما باتَ يحفظني**».

السبت واليهود

وعاشت تلك السيدة في بيت النبوة بينها وبين آل البيت كل حُبٍّ ومودَّة،

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يكرمها ويعطف عليها، وكانت صادقة تقية ورعة. وكان النبي ﷺ يُشعرها أنها ليست غريبة ـ كما كانت تحس ـ لأن زوجات النبي ﷺ معظمهن عربيات قُرشيات، أما هي فكانت تحس بالغربة وعدم الأهل، فكان يعوِّضها بحنانه وعطفه، مما جعلها تشعر أنها بين يدي نبي كريم أعز من أبيها وأكرم من قبيلتها. ومضت الأيام ولحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، وأحست «صفية» باللوعة والأسي لأنها فقدت أعز وأكرم مخلوق لديها.

وقد ذهبت جارية لها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقالت: يا أمير المؤمنين، إن صفية تحب السبت وتَصِلُ اليهود «وهذه فرية»، فبعث إليها عمر بن الخطاب يسألها عن ذلك، فأجابت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإنَّ لي فيهم رحماً، فأنا أصلها. ثم التفتت السيدة صفية إلى جاريتها تسألها عَمَّا حملها على مثل ذلك الافتراء؟ فأجابت الجارية: الشيطان. وردت صفية: اذهبي فأنت حرة! لقد أخذت سيدتنا صفية ذلك المبدأ، مبدأ العفو من قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

في خلافة عثمان

عاشت أم المؤمنين بعد انتقال رسولنا ﷺ إلى الرفيق الأعلى تصلي فرضها وتكثر من التهجُّد والتنفُّل والصيام، وتجلس على مائدة القرآن تغذي روحها وتصل نفسها بربِّها حتى إذا وقعت الفتنة في عهد سيدنا عثمان بن عفان كانت موالية لعثمان. وأثناء الحصار كانت تنقل الطعام والماء إليه وهو في محنته، وكانت تصنع المعروف، ويدل موقعها من سيدنا عثمان على طيبة نفسها وحسن صنيعها.

خاتمة حياتها

وبعد حياة طويلة مليئة بعمل الخير، وبعد أن سجل اسمها في كتب

(١) سورة فصلت، الآية ٣٤.

الحديث، حيث روى عنها بعض آل البيت، كالإمام زين العابدين علي بن الحسين، وكذلك روى عنها مسلم بن صفوان، ومولاها يزيد بن متعب، وابن أخيها كنانة ـ روي عنها الكثير من الأحاديث التي سمعتها من رسول الله ﷺ. وهكذا كان لها أثر طيب، وعاشت حتى استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان. وانتقلت إلى جوار ربها سنة خمسين من الهجرة، ودُفنت بالبقيع مع أمهات المؤمنين، وطويت بذلك صفحة طيبة مشرقة لسيدة جليلة آمنت بربها، وأخلصت لنبي الإسلام، وتخلّت عن مبادئ اليهود بعد أن تبين لها الرشد، فرضي الله عنها وأرضاها، وألحقنا بها في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ميمونة بنت الحارث الهلالية
رضي الله عنها

هي بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهزم بن رويبة بن عبد اللّه. وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث، سيدة من أكرم سيدات مكة. اسمها «بَرَّة» إحدي أخوات أربع، قال ﷺ عنهن: «**الأخوات المؤمنات**». الأولى: شقيقة لها، هي أم الفضل، زوج العباس عم الرسول ﷺ، وأول امرأة آمنت بالرسول ﷺ بعد خديجة، وهي التي ضربت أبا لهب بعامود فشجَّت رأسه وهو عدو الله ورسوله. والثانية: أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب. والثالثة: سلمي بنت عميس زوج حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء. وكانت أمها أكرم عجوز لها أصهار كرام.

زواجها الأول

تزوجت بَرَّة من مسعود بن عمرو، ثم فارقها فتزوجها أبو رهم بن عبد العزيز، ثم توفي عنها، فجعلت أمرها إلى أختها «أُمّ الفضل» وأسرَّت إليها ترغب في رسول الله ﷺ، فكلمت أم الفضل زوجها العباس عم الرسول ﷺ الذي كَلَّم ابن أخيه محمداً ﷺ، فتزوجها على بُعْدِ عشرة أميال من مكة سنة ست من الهجرة، وغيَّر اسمها من «بَرَّة» إلى ميمونة، وأصدقها أربعمائة درهم. وأراد ﷺ أن يتم

زواجه منها بمكة، لأنه قد قارب نهاية المدة المنصوص عليها في صُلح الحُديبية، ولكنَّ قريشاً رفضت، وخرج الرسولُ ﷺ والمسلمون من مكة، وتخلَّف أبو رافع مولي الرسول ﷺ ليلحق به وهي في صحبته وعند مكان يسمى سرف ـ وهو مكان قريب من التنعيم ـ بني بها ﷺ، وسُميت «ميمونة» تيمناً بدخول المسلمين مكة لأول مرة بعد سبع سنين، وتحقق أمل ميمونة بهذا الشرف الذي نالته. وهي آخر زوجة تزوجها ﷺ، وكان الرسول في بيتها حين اشتد به الألم في مرض الموت، وسمحت له بالانتقال إلى بيت عائشة.

منزلة ميمونة

تمتعت ميمونة بمنزلة عظيمة عند رسول الله ﷺ، وقد أسلم بسببها خالد بن الوليد لأنها خالته، وهو فارس قريش، ولقد دار حوار بينه وبين عكرمة بن أبي جهل نسجِّله هنا ليكون دليلاً على بيان الحق الذي دعى إليه محمد ﷺ... يقول خالد في جَمْع من المشركين: «لقد استبانَ لكل ذي عقل أنَّ محمداً ليس بساحرٍ ولا شاعرٍ، وأن كلامه من كلام ربِّ العالمين، فحقٌّ على كل ذي لب أن يتبعه». ففزع عكرمة بن أبي جهل لمّا سمع ذلك ورد قائلاً: «لقد صَبَأْتَ يا خالد».

قال خالد: لم أصبأ ولكني أسلمت.

فقال عكرمة: والله إن أحق أي قرش ألاَّ يتكلَّم بهذا الكلام لهو أنت.

قال خالد: وَلِمَ؟

قال عكرمة: لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جُرح وقتل عمك وابن عمك ببدر، والله ما كنت لأسلم ولا أتكلم بكلامك يا خالد، أما رأيتَ أن قريشاً يريدون قتاله؟

فقال خالد: هذا أمر الجاهلية وحَمِيَّتُها، ولكنني والله أسلمتُ حين تبيَّن لي الحق.

. . . . . .

وهو حوار طويل دار بينهما وخالد ليس بالهين، فهو الشجاع الكفء اللبيب، وقد تبين له الرشد من الغي بعد أن تزوجت خالته من رسول الله ﷺ، ولقد ازداد الإسلام قوة عندما اعتنقه خالد، لأنه هو مَنْ هو في تخطيطه الحربي وقيادته العسكرية، وتواضعه في غير ذِلَّة، وانقياده لما يُوَجَّهُ إليه من القائد.

وفاتها

عاشت «ميمونة» بعد الرسول عليه الصلاة والسلام قرابة خمسين سنة، وهي صوَّامة قوَّامة، تقية نقية، وتوفيت في السنة الحادية والستين بعد الهجرة في خلافة يزيد بن معاوية، وهي آخر من مات من أزواج النبي ﷺ ولها من العمر ثمانون سنة، وقد أوصت أن تُدفن «بسرف»، المكان الذي التقت فيه برسول الله ﷺ، وقد تَمَّ لها ما أرادت، وحُمِلَ جسمها إلى هناك حيث التقت بأخواتها السابقات من السيدات الكريمات أمهات المؤمنين.

فرضي الله عنها وألحقنا بها في منازل الأبرار والصدِّيقين والشهداء والصَّالحين وحسن أولئك رفيقاً.

سراري النبي ﷺ

بُعِثَ النبي ﷺ والاسترقاق منتشر في العالم أجمع. وقد جاء الرسول ﷺ برسالة تفك أسر الناس من قيود الذل والهوان والاتجاه إلى الخالق لأنه المعبود بحق، الخالق لكل شيء، ولم يكن من الحكمة أن يبدأ الرسول ﷺ بإبطال هذا الوضع مرة واحدة، لأن الناس دَرَجُوا عليه وأَلِفُوه، ولأنه يشكِّل ثقلاً اقتصاديًا خطيراً، ولكن التشريع في المجتمع الإسلامي يدعو الناس إلى أُخُوَّة ومحبة، لا تفاضل فيها بين أبيض وأسود. ورفع الإسلام قيمة الرقيق بما وضعه الرسول ﷺ من مُثُل وقيم، ورفع من مستواهم الاجتماعي، وأذاب الفوارق بين الطبقات، من ذلك قوله ﷺ: «**إخْوانُكُم خَوَلُكُم فَمَنْ كان أخوه تحت يده فَلْيُطْعِمْهُ مما يطعم، ويلبسه مما يلبس**».

وقال ﷺ: «**لا يَقُلْ أحدكم عبدي وأَمَتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي**». ثم إن الإسلام وضع منهجاً لتحرير الرقيق لم تصل الإنسانية إلى مثله إلى يومنا هذا في أُسُسه القويمة وأهدافه المثلى، ودعا إلى فك الرقاب بطرق متعددة، كما أنه ضَيَّقَ من سُبُل الرق وحصرها في حالة الحرب الشرعية التي يأمر بها إمام المسلمين بمشورة «أهل الحل والعقد»، فكان من وقع أسيراً يعرض عليه: إما أن يدخل في الإسلام أو يدفع الفدية. وكان من بين الذين يقعون في الأَسْر بعض النساء، وكان المسلمون يأخذونهم للتسرِّي بهن، فالقرآن الكريم يقول: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1] وذلك ليكنَّ أمهات أولاد شرعيين كسائر الأمهات الأحرار، فإن الجارية التي تلد لسيدها تُعْتَقُ بموته ولا يجوز بيعها. وهذا يعطيها مكانة اجتماعية سامية، لأنها حصَّنت نفسها وضمنت رزقها مع حفظ كرامتها، والحكمة من وراء ذلك أن يكون لها كافل من الرجال في مجتمع ليس لها فيه قريب. والرسول هو القائد للجند في كثير من الغزوات التي وقعت بين المسلمين الذين يدافعون عن دينهم وعقيدتهم، ويردون العدوان عنهم من أعدائهم وأعداء دينهم، وقد يكون من نصيبه ﷺ بعض سبايا الحرب، فكان ﷺ يعرض عليهن الإسلام، فإن أسلمن تزوجهن رحمة وعطفاً، كما حدث لصفية بنت حيي وجويرية بنت الحارث، وتُهْدَي إليه بعض الرقيق، كمارية القبطية التي أُهديت إليه من المقوقس.

وسوف نتكلم الآن عن مارية القبطية التي ربطت بين أرض مصر الطيبة وبين المدينة المنورة وأصبحت أُمًّا لولد هو «إبراهيم» وأبوه سيدنا محمد ﷺ.

ماري القبطية

علي أرض مصر الطيبة وفي قرية من قراها العامرة شاءت إرادة الله سبحانه لمارية بنت شمعون أن تحيا أيامها الأولي من عمرها حتى اكتمل عودها، فانتقلت إلى بيت المقوقس عظيم قبط مصر. وعاشت كأترابها، لا تدري ما هو مخبوء لها

(١) سورة النساء، الآية ٣.

في عالم الغيب، ولا ما يكنّ لها، وكانت تشاركها حياتها أُخْتٌ لها اسمها «سيرين». ومضت الأيام، وبدأ الناس يتحدثون عن ظهور نبي بُعِثَ في جزيرة العرب يدعو الناس لعبادة الواحد الأحد الديَّان، مالك المُلْك، رب العالمين، وكانت هي تتسمع تلك الأخبار فينشرح صدرها ويشرق الأمل في نفسها، ولكنها لم تكن تعرف سبب ذلك، فتمضي في عملها حتى لا يلحظ أحد ذلك عليها.

مرحلة جديدة

وفي السنة السادسة الهجرية عقد صلح بين النبي الكريم وبين قريش سُمِّيَ «بصلح الحديبية»، وبسبب هذا الصلح هدأت الأحوال وتوقفت الحروب فترة من الزمن. وصاحِبُ الدعوة يَقِظٌ يتحين الفرصة لتبليغها إلى أكبر عدد من الناس علَّهم يستجيبون له ويسمعون صوت الحق، وما كادت تلك المعاهدة والحروب تتوقف حتى بادر النبي الكريم بإرسال كتب ورُسُل إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام ويعرض عليهم الإيمان ويتلو عليهم القرآن، وكان من الذين خاطَبَهُم وأرسل إليهم «المقوقس»، وكان الرسولُ الذي حمل الرسالة هو «حاطب بن أبي بلتعة» رضي الله عنه، وهو صحابي كريم، ومجاهد عظيم، شَهِدَ بدراً وما بعدها من المواقع، وكان على علم تام بمهمته وما تتطلبه من مهارة وقدرة في الإقناع بالمبدأ الذي يؤمن به.

رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس

حمل حاطب بن أبي بلتعة رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس وهذا نصها: «**بسم الله الرحمٰن الرحيم. من محمد بن عبد اللَّه إلى المقوقس عظيم القبط. سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أَسْلِمْ تَسْلَم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإنما عليك إثم القبط** ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1]». وقرأ المقوقس هذا الكتاب المشرق ثم

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

طواه في عناية وتوقير ووضعه في حُقٍّ مِنْ عاجٍ، ثم دفعه إلى واحدة من جواريه، وبعد ذلك التفت إلى حاطب بن أبي بلتعة يسأله عن النبي وصفته. وشرح حاطب باستفاضة وذَكَرَ ما يعرفه من محامد هذا النبي.

وما كاد المقوقس يسمع من حاطب ويفكر مليًّا فيما سمع ثم قال: قد كنت أعلم أن نبيًّا قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وهناك كان مخرج الأنبياء، ولكنه خرج من أرض العرب. ولكن القبط لا تطاوعني وأنا أضن بملكي أن أفارقه. ثم دعا بكاتبه فأملي عليه: «أما بعد... فقد قرأتُ كتابك وفهمتُ ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمتُ أن نبيًّا قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمتُ رسولَكَ وبعثْتُ لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم، وبثياب ومطية لتركبها، والسلام». ولما دفع المقوقس كتابه إلى حاطب وَصَّاهُ بأن يكتم ما دار بينهما من حديث.

وعاد حاطب إلى النبي ﷺ ومعه الهدايا وهي: مارية وأختها سيرين، وعَبْدٌ خَصِيٌّ، وألف مثقال ذهباً، وعشرون ثوباً من نسيج مصر، وجواد مسرج، وحمار أشهب، ونوع من العسل، وبعض العود والمسك.

وانطلق حاطب بذلك عائداً إلى المدينة حيث كان الحبيب المصطفى ورفاقه الأبرار، وبلغ الركب المدينة سنة سبع، وتلقي النبي ﷺ الهدية. وحجز لنفسه مارية، أما سيرين فإنه أهداها إلى شاعره حسان بن ثابت.

طار نبأ تلك الوافدة الجديدة إلى نساء النبي الكريم فكان هناك نوع من القلق، خاصة أن الرسول ﷺ كان يُبْدي نحوها اهتماماً خاصًّا قد يكون فيه دوافع إنسانية، وتلك صفاته مع كل من يلتقي به، وقد يكون هناك نوع شبه بين الوافدة وبين جَدَّتنا هاجر أم إسماعيل، لأنها كذلك من مصر بلد الخصب والنماء.

ومضت الأيام ومارية كانت تحب سماع قصة هاجر ونجدة السماء لها مع وليدها عند بيت الله الحرام، وهي قد أسلمت وحَسُن إسلامها، ودأبت على قراءة القرآن والذكر والدعاء. ومضت سنة من اقتراب الرسول ﷺ منها، وبدأت تحس ببوادر تغيرت بسببها حياتها. إن هناك ما يشبه الحَمْل، فهل يصدق ظنها وتكون أُمًّا

لمولودٍ لهذا النبي الذي تزوج بعد خديجة الكثير ولم ينجب من أي واحدة منهن. ومضي شهر وشهر ولم تُبِحْ لأي واحدة بما تحس به، ثم أفضت بسرها إلى أختها سيرين، ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ، فرفع وجهه إلى السماء شاكراً لله رب العالمين، وكان لهذه البشري وَقْعٌ في نفس الرسول ﷺ الذي بات يرعاها وعمل على راحتها.

إشاعة وتكذيب

ولم تكتمل الفرحة التي سرت في أنحاء المدينة أن رسول الله ﷺ ينتظر مولوداً من مارية المصرية، فسرعان ما انتشرت إشاعة كاذبة بأن مارية لها اتصال برجل وَفَدَ معها وكان يأوي إليها يأتيها بالماء والحطب، فقال الناس في ذلك: عِلْج يدخل على علجة، «وعلج كلمة تقال للأحباش وتقال لكل حاف غليظ من الرجال».

وبلغ الخبر إلى سيدنا رسول الله ﷺ فاغتمّ لذلك، خاصة أنه قد سبق أن تكلم الناس في حق أم المؤمنين عائشة فبرَّأها الله مما قالوا، ولكن هل يترك الرسول ﷺ مارية ويتخلي عنها ـ لا ـ إنه لم يتركها في محنتها بل أراد أن يتثبَّت من الخبر عملاً بقول الله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾[1]. عندئذ أرسل الرسول ﷺ سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى هذا الخادم ليتعرف على أحواله فوجده على نخلة هناك، فلمّا شهر سيدنا عليّ سيفه وَقَعَ في نفس القبطي الخوف وألقي الرداء الذي كان يستره فتعرَّى فإذا هو «مجبوب»، فرجع سيدنا عليٌّ إلى النبي ﷺ فأخبره بما رأى من القبطي. ثم جاء أمن الوحي جبريل عليه السلام فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم، فاطمأن رسول الله ﷺ، وبعد ذلك نقلها إلى ضاحية من ضواحي المدينة بمكان يسمى العالية توفيراً لراحتها، وعناية بصحتها وصحة الجنين.

(١) سورة الحجرات، الآية ٦.

الوليد إبراهيم

وتقدمت الأيام بمارية، وكان رسول الله ﷺ يرعاها وكذلك أختها سيرين، حتى إذا اكتمل الجنين وحانت ساعة الوضع في ليلة من شهر ذي الحجة سنة ٨ هـ، أرسل الرسول ﷺ قابلتها «سَلْمَى» زوج أبي رافع، وخرج الوليد إلى الدنيا يعلن صلته بها، وكان سبباً في إكرام أُمِّه التي أُعتقت من الرقّ بعد ذلك حيث أصبحت أم ولد.

وحمل الرسول ولده بين يديه وسمَّاه إبراهيم تيمُّناً بجده إبراهيم عليه السلام، وتصدَّق الرسول ﷺ على كل مسكين في المدينة بوزن شعر الوليد وِرْقاً[1]، وكانت لحظات السعادة تغمر النبي الكريم وتغمر كذلك مارية التي شعرت أنها أسعدت هذا الرسول العظيم، حيث ولدت له على الكِبَر إبراهيم، ولكن تلك السعادة لم تدم فما كاد إبراهيم يبلغ من العمر عامين حتى أَلَمَّ به مرض، فجزعت أُمُّه وسهرت بجواره، وكان الرسول ﷺ يدخل عليه وهو محزون القلب، ليست له حيلة في دفع ما نزل بوليده، حتى إذا حان وبلغ الأجل مداه دمعت عينا الرسول ﷺ، فسأله أحد أصحابه: لِمَ هذا الدمع؟ فقال: «**إنها رحمة أودعها الله في قلب مَنْ أحب من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**». ثم يقول: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يُرْضِي رَبَّنا، وإنَّا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون**»... وأقبل الفضل بن عباس فغسَّل الميت وأبوه ينظر إليه، ثم قبر في البقيع في يوم غام فيه الأفق فقيل: «غام الأفق وانكسفت الشمس لموت إبراهيم». وبلغت الكلمة أُذُن الرسول، فلم يتركها هكذا، وإنما وَجَّهَ الناس إلى الحق والصواب فقال: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته**»... ثم طوي الرسول قلبه على جُرحه مستسلماً لأمر الله وقضائه، وما هو إلا عام حتى لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلي بعد هذا الحادث الذي مرَّ في حياته.

نهاية المطاف

أما مارية التي دخلت التاريخ وتبوَّأت هذا المكان الكريم فقد عاشت بعد

---

(١) الوِرْق: الفضة.

الرسول ﷺ خمس سنوات في عُزْلة لا تَلْقَي أحداً إلاَّ قليلاً، عاشت عابدة متعبِّدة لله، خاشعة، وأسلمت روحها لله ولقيت ربها في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٦ هـ، وكفاها فخراً أن الله تعالى تَدَخَّل لحمايتها، وأن الرسول ﷺ رُزِقَ منها الولد في آخر أيامه، وكانت سبباً في أن الرسول ﷺ يوصي بأهل مصر خيراً بعد أن تمَّ هذا الرباط الوثيق، وأعادت سيرة هاجر مع إبراهيم في تلك البقعة المباركة من الجزيرة العربية. ولمّا جاء عبادة بن الصامت الصحابي الجليل إلى مصر بعد فتحها بحث عن قرية مارية، وسأل عن موضع بيتها وبَنَي به مسجداً.

والحسن بن علي طلب من معاوية رفع الخراج عن أهل قرية «حَفْن» بلدة مارية بقري الصعيد بمصر إكراماً لذكراها.

إن حياة مارية فيها العظمة والعبرة لأمهاتنا وأخواتنا وبناتنا، نسأل الله أن يجعلنا من المستفيدين من حياة أزواج نبينا الكريم ﷺ.

ريحانة

ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة بن شمعون بن زيد. من بني النضير، وكانت متزوجة برجل من بني قريظة يقال له الحَكَم، كان مُحِبًّا لها مُكْرِماً إيَّاها، فقالت: لا أستخلف بعده أبداً، فلما وقعت في السبي أمر بها النبي ﷺ فَعُزِلَتْ، وأرسل بها إلى بيت أُمِّ المنذر بنت قيس، وبعد أيام دخل عليها ﷺ، وتقول هي: «فتخبيت منه حياءً، فدعاني فأجلسني بين يديه وقال: «**إن أحببت أعتقتُكِ وتزوجتك فعلتُ، وإن أحببتِ أن تكوني في ملكي**». فقلت: يا رسول الله، أكون في ملكك أخفُّ عليَّ وعليكَ»، فكانت في مِلْك رسول الله ﷺ حتى ماتت عند عودته من حجة الوداع، فدفنها بالبقيع.

قصتان

ونختم هذا الموضوع بذكر قصتين يتبيَّن منهما أن الرسول ﷺ لم يكن جباراً ولا قاسياً، وإنما كان بارًّا رحيماً، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ

رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

القصة الأولى: زواجه من عمرة الكلابية

عمرة بنت زيد بن عبيد بن رواس بن كلاب، تزوجها ﷺ في ذي القعدة من السنة الثامنة للهجرة. وعندما خَيَّرَها كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[2]. اختارت الدنيا وقومها، ففارقها وذهبت إلى قومها، فَرُئِيَتْ وهي تلتقط البعر «روث الإبل» وتقول: «أنا الشقية». وإنما ذكرنا ذلك لنقف أمام هذه العظمة المحمدية، لقد كان بحق رؤوفاً رحيماً، وكان منهجه كما يقول القرآن: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾[3].

القصة الثانية: أسماء

أسماء بنت النعمان بن أبي الجون بن الأسود بن الحارث. قال والدها النعمان بن أبي الجون: يا رسول الله، ألا أُزَوِّجُكَ أجمل أيمٍ في العرب كانت تحت ابن عمٍّ لها فتوفي عنها فتأيمت ورغبت فيك وتطلعت إليك. فتزوجها ﷺ على اثنتي عشرة أوقية. فقال: يا رسول الله، لا تُقَصِّرْ في المهر. فقال ﷺ: «**ما أصدقتُ أحداً من نسائي فوق ذلك**». فقال النعمان: ففيك الآسى. ثم طلب النعمان من رسول الله أن يبعث معه من يحمل ابنته إلى الرسول حيث يتم الزواج، فبعث الرسول ﷺ أبا أسيد السَّاعدي، فلما وصلت إلى المدينة ودخل عليها ﷺ رفعت وجهها وقالت: أعوذ بالله منك. فرجع عنها ﷺ وقال لها: «**لقد استعذتِ**

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٨.
(٢) سورة الأحزاب، الآيتان ٢٨ ـ ٢٩.
(٣) سورة الإسراء، الآية ١٥.

بمعاذٍ أمين عائذ الله». ثم أمر بردِّها. فلما اقتربت من أهلها تصايحوا وقالوا: إنَّكِ لَغَيْرُ مباركة.

وهذا مَثَلٌ آخر نضعه أمام مَنْ يتطاولون على النبي ﷺ فإنه لم يقتنصها ولم يهنها، وإنما رَدَّها معزَّزة مكرَّمة، مع أنها أساءت التعبير في بيته. إنه مَثَلٌ يدل على حُسْن الخُلُق الذي كان يتمتع به الرسول ﷺ. وهو الذي وضع لنا دستوراً ومنهجاً لمعاملة النساء معاملة كريمة. ويقول فيما رُوي عنه: «**ما أكرمَ النساءَ إلاَّ كريمٌ وما أهانهن إلا لئيم**».

صلوات الله وسلامه عليكَ يا سيدي يا رسول الله، يا مثلنا الأعلى، وقدوتنا إلى الله ورضوان الله على أمهات المؤمنين الصالحات اللائي حَرَّمَهُنَّ الله على المؤمنين زواجاً من بعدك يا رسول الله لتكتمل لهن منزلة الإعزاز والتقدير.

ولقد حدث أن عُيينة بن حصن الفزاري دخل على النبي ﷺ بغير إذن وعنده عائشة، فقال ﷺ: «**فأين الاستئذان؟**»، فقال: يا رسول الله، ما استأذنتُ على رجلٍ من مُضَرٍ منذ أدركت. ثم قال: مَنْ هذه الحميراء إلى جنبك؟ فقال: «**هذه عائشة أم المؤمنين**». فلما خرج قالت عائشة: مَنْ هذا؟ قال: «**هذا أحمق مطاع، وأنتِ على ما تَرَيْنَ سيدَ قومه**».. وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾[1]. وقد نزلت هذه الآية في رجل كان قد تكلم بأنه يرغب في زواج بعض نساء النبي.

فسبحان ربِّك ربِّ العزَّة عَمَّا يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، وصلَّي الله على سيد الأولين والآخرين، وعلى أنبياء الله والمرسلين.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٣.